المقتطف

الجزء الثالث من المجلد العاشر بعد المئة

---

١٠ مارس سنة ١٩٤٧ — ١٧ ربيع الثاني سنة ١٣٦٦

التعليم والتربية

منزلة الامم من الحضارة هي في الأكثر التي تحدد معانى الألفاظ في اللغة التي تتكلمها. وانه مما لا ريبة فيه أن معنى بعض الألفاظ ، وبخاصة الألفاظ التي تدل على أشياء أو معانٍ أو مفهومات تتطوَّر بتطور العقلية والفكر ، يتكيف دائماً بمقتضى المثاليات التي تقوم في رؤوس الطبقة المنتقاة من الجمعية .

لا ننكر مثلاً أن الانسان البدأى كان يتخير «للتعليم» معنى يتكيف في ذهنه . وتحدّده دائماً قواسر القدرة الطبيعية على الفهم ، كما تحدده نوازع الوسط الاجتماعي والعادة والعرف اللذين تجري عليهما الجمعية التي يعيش فيها ، ومنها تستمد مواد القانون القبلي . ولا نكران أيضاً أن هذا المعنى قد تحوَّر وتكيَّف مرات كثيرة في خلال التاريخ منذ العصور القديمة الى الآن . فالمعنى المدرك من التعليم في مصر القديمة مثلاً غيره في بلاد الكلدان أو أشور أو الهند . ذلك بأن هذا المعنى يلابس دائماً صورة تتفق وحاجات كل جمعية ، ويخضع كل الخضوع لأغراض الحياة المكيفة بالبيئة والوسط وشكل الحكم . وقس على ذلك ما أدرك اليونان من التعليم وما أدرك الرومان ، ثم قارن بين ما أدرك منه في العصور الوسطى ، وما يدرك منه في العصر الحديث ، فانك ولا ريب تستبين الفارق البعيد بين جملة التصورات التي قامت في كل عصر لهذا المعنى ، مقدرة بمقتضى حاجات كل عصر تقديراً .

أما معنى التربية ، ولئن كان من المعاني التي تشرف عندي معنى التعليم ، فقد ظل في جميع العصور تابعاً للمعنى المدرك من التعليم . واذا صحَّ ما أذهب اليه من أن التربية هي في جوهرها « ترويض النفس على تطبيق العلم » ، استطعنا أن ندرك كيف يتبع المعنى المدرك من التربية المعنى المدرك من التعليم ، وكيف أن التعليم يفقد جماع الفائدة منه ، اذا هو لم يطبق على قواعد مثالية من التربية .

ولم يمر عصر من العصور كانت الجمعيات البشرية فيه أحوج منها الى إدراك الرابطة بين التعليم والتربية من زماننا هذا . فقد تعقدت أوجه الحياة بنشوء هذه الحضارة المادية الاقتصادية ، تعقداً لمسنا معه ضرورة أن يكون لكل جمعية من الجمعيات مرامي مثالية توجه حياتها وتقود خطواتها في الحياة ، بحيث تصبح في طريق الجمعية بمثابة المصابيح المنيرة في ليل أليل ، وعندي أننا لم نقصِّر في التعليم ، بل أقول أننا تطرَّفنا في شحن برامجه بالموادّ حتى أصبحنا نشكو مرّ الشكوى من ضخامة المعلومات ، ومن عدم القدرة على خلق نفسيَّات مروَّضة على تطبيق العلم . وإذا فقدت النفوس القدرة على تطبيق العلم ، تطبيقاً مثاليًّا من ناحية الأخلاق ، أصبح أداة : إمَّا متعطلة ، وإمَّا فاسدة .

لا ينبغي لنا أن نغفل مع هذا عن أننا نجتاز عصر انتقال . غير أني لا أميل إلى القول بأن « عصور الانتقال » من الظواهر التي تتخذ سبيلاً الى الاعتذار عن سوء حالة التربية ، كما يجمع على ذلك كل المفكرين في هذه الناحية . حقيقةً إن عصور الانتقال تختلف في جميع مظاهرها عن عصور الاستقرار ، ولكن الى جانب هذا هي عصور تقدم وارتقاء ، تدور فيها عجلة التطوُّر بأسرع مما كانت تدور ، بل لا نبالغ إذا قلنا إنها قد تدور خلال عصور الانتقال بأسرع مما تدور في بعض عصور الاستقرار . ومن هذه الناحية تكون أهميتها ، بما يكون لها من سلطان ثابت قد يدمغ بطابعه عصوراً برمتها من المستقبل . وإني لأقول ، وأستطيع أن أثبت قولي ببراهين منطقية وتاريخية عديدة ، أنك إذا أردت أن تدرس حالات أمة ضربت في المدنية ، ونشَّأت نظامات حكومية ثابتة ، وكوَّنت حياة مؤتلفة ومعاهد مستقرة ، وأن تدرك شيئاً من سر ذلك كله ، فَعُد إلى عصر انتقالها ، تجد أن جذور ذلك كله إنما تعود الى ذلك العصر ، ففيه تغرس البزرة وفيه تفرخ ، وترى أن كل

الثمار التي تحملها تلك الدوحة فيها طعوم مختلفة من أثر التربة التي نبتت فيها وطبيعة الماء والهواء، وبالجملة من طبيعة « الوراثة الاجتماعية » التي تحملها تلك البزرة الأولى، وتسلم بها الى مستقبل الأجيال .

هذا كلّه يحملني على القول بأن الذين يعتذرون عما نأنس في مجتمعنا من مظاهر القلق والحيرة، بأننا نجتاز « عصر انتقال » غير آبهين لما تحمل عصور الانتقال في تضاعيفها من بزور المستقبل، إنما يرتكبون أفحش الخطأ في أسلوب تفكيرهم تلقاء العصر الذي نعيش فيه، ذلك بأنّ عصر الانتقال هذا، هو أجدر العصور بأن تعالج فيه مشكلاتنا الاجتماعية التي سيتمخض عنها المستقبل . هو العجينة التي منها سوف يتكوّن المجتمع المقبل، ومنها سوف يأخذ صورته، وبكل عناصرها سوف يتأثر ويعمل، وبما فيها من جراثيم السوء سوف يمرض، وبما تحوي من جواهر القوة سوف يتسلّح .

ولكن هل من قوة نستطيع بها أن نحتكم في عصر الانتقال ؟ وهو عصر تثور فيه النزعات، وتكثر المخاوف، وتقل المحامد، وتزيد المتاعب، وتنقص فيه الثمرة عن مقدار الجهد المبذول، وتطير فيه الآمال كأنها الأشعة الخاطفة، وتظهر فيه قوى الانبعاث هياجة متطرفة، وثابة لا تؤدة فيها ولا هوادة، وتنطوي فيه القوة المثالية على نفسها ؛ وتقبع قبوع السلحفاة في صدفتها، بينما تحلق في سماء المجتمع المطامع والمكروهات والمادية الجامحة؟

* * *

غالب ظني انهذه الظواهر يتعذر الاحتكام فيها بحيث يمكن محوها محواً تامّاً، أو حتى الاقلال من قوتها بما يذهب ببعض مفاسدها . هي أشياء من خلق عصر الانتقال ومن طبعه. هي سر من أسراره، وخلة من خلاله . على أن غاية ما في مستطاع مصلح أن يطلب من المفكرين في مجتمع يجتاز عصر انتقال، هو أن يلجأ الى الممكن ويترك المستحيل . والممكن هو أن يوجه القوى المنبعثة، لا الى الحاضر لأنّ الحاضر مفروغ منه، ولكن الى المستقبل . فان مثل الأمة في عصر الانتقال كمثل حامل أخذها المخاض . إنها ستلد قطعاً . أمّا جنينها فهو الثمرة التي سوف يتلقاها المستقبل . وبحسب تربيته قبل تعليمه، سيتكوّن ذلك المستقبل . لهذا أعتقد أن عصر الانتقال هو العصر الذي تكمن فيه كل عناصر

المستقبل . ومن هنا تكون أهميته وشأنه ، وبهذا ينبغي أن يوزن وأن يقيَّم تقييماً فلسفيًا مثاليًا . وعلى مقتضى هذا التقييم يمكننا أن نزن مستقبل الأمة .

كل هذا يؤيد تعريفنا الذي وضعناه « لمعنى التربية » ، إذ قلنا أنها « ترويض النفس على تطبيق العلم » . ولست أقصد « بتطبيق » العلم عمليًا ، فالطبيب يطبق علمه على المريض ، وكذلك المهندس والمحامي وغيرهما ، فان كل متعلم إنما يطبق العلم على موضوع علمه ، وذلك كله من مقتضيات التعليم . ولكني أقصد تطبيق المثاليات الخلقية على مقتضيات العلم ، أقصد أن يكون لكل علم بشيء حالة نفسية تلابسه ، بحيث تكون من عناصر التطبيق العمليّ . أقصد أن تكون مكارم الأخلاق ، ومعاني السلوك الأمثل ، هي رائد العالم عند تطبيق علمه ، والصانع في صناعته ، والزارع في حقله ؟ وعلى الجملة أن يكون التصوُّر الذي يقود الفرد في الحياة خلْقًا فيه مزيج من ثابت العلم ومثاليات الخلق .

* * *

إن الطريق الذى نتبعه في التعليم الآن طريق أعوج . نعني بشحن الأذهان ، ونقلع عن ترويض النفوس . نعمل على نقل المعلومات الى الذهن حتى نفعمه ، ونترك الروح في فوضى وفي عماء . نخرج أطباء ومحامين وزرّاعاً ومهندسين تكاد تكتمل معلوماتهم التي تؤهل بهم أن يعالجوا ما اختصَّ بكل منهم من مشاكل الحياة ، ولا نغرس فيهم المعاني النفسية السامية التي ينبغي أن تطبق هذه المعلومات على مقتضاها . فنحن نعلِّم ولا نهذِّب . مثلنا في ذلك كمثل منْ أخذ بالعرض وترك الجوهر . فكأنما نحن نخرج من أبنائنا متعلمين أشبه بعمي يقودهم مقعدون .

وهل أدلُّ على ذلك من العنوان الذي نصرفه على الوزارة التي تعني بالتعليم فنسميها « وزارة المعارف » وأجدر بها أن تسمى « وزارة التربية » لعل الأذهان تنصرف بوحي العنوان الى تربية النفوس باعتبارها الجوهر ، وجعل « المعارف » هي العرض .

اسماعيل مظهر

النظائر وكيمياء النواة

إن بحث النظائر Isotopes ، يرتد الى العقد الثاني من هذا القرن . وقد كانت تلك الأبحاث الرائعة السبب المباشر في انقاذ العلماء من حيرة عظيمة ظلت تساورهم وقتاً طويلاً في أوزان العناصر الذرية . كان الكيميائيون لا يدرون كيف يعللون وجود الكسور في تلك الأوزان ، وكانوا يعلمون بأن وحدة الوزن الذري هي وحدة صحيحة الرقم . وعلى هذا الأساس كانوا ينتظرون أن تكون أوزان العناصر صحيحة الأرقام أيضاً ما دامت هي مكرورات لوحدة صحيحة الرقم . ولكن المقاييس الدقيقة كانت تكذب فرضهم ، وتخيب آمالهم عندما تطالعهم بنتائج مشفوعة بالكسور . وظلّ هذا الأمر مستعصياً على أفهام العلماء إلى أن عرفوا النظائر . فوجدوا وعلى رأسهم صُدي وأستن بأن لمعظم العناصر مثيلاً Isotope ، أو أكثر يشابهه في خواصه وإشعاعه ، ويختلف عنه في وزنه فقط ، وبعبارة أخرى أن النظائر تتفق في فعلها الكيميائي وعدد الكتروناتها — الرقم الذري — وتختلف في وحدات أوزانها الذرية . فالكلور مثلاً له نظيران لهما ذات الفعل الكيميائي ، لذرة النظير الأول (١٧) الكترون في المحيط — الرقم الذري — ووزنها (٣٥) ولذرة الثاني (١٧) الكترون أيضاً ولكن وزنها (٣٧) أي بزيادة وحدتين من وحدات الوزن الذري (ذرة الهيدروجين) . وقد أدرك العلماء أيضاً بسبب ذلك أن أوزان العناصر وما فيها من كسور ليست هي وزنها الحقيقي ، وإنما هي متوسط أوزان نظائره . فاذا نظرنا الى جدول الأوزان الذرية ووجدنا بأن وزن الكلور الذري (٣٥ر٤٥٧) أدركنا أنه متوسط مزيج ذرات نوعية ووزنهما (٣٥) و (٣٧) بنسبة ثلاثة الى واحد أو (٧٧) بالمئة للأول و (٢٣) للثاني . وهكذا القول في كل العناصر التي ظهر لها نظائر وهي أكثر من نصف العناصر المعروفة . والخلاصة أن النظائر مهما تعددت لها رقم واحد في جدول الأرقام الذرية يدل على خواص العنصر التي يتميز بها .

فاذا كان وزن القصدير مثلاً ١١٨ر٧ عنينا أنه متوسط وزن عشرة نظائر مزجت ذراتها بنسب معينة لكل نظير منها وزن خاص صحيح العدد بينما لتلك النظائر كلها رقم ذري واحد وهو (٥٠) .

قلنا ان العلماء قالوا أن النظائر تتشابه في فعلها الكيميائي وإشعاعها — أشعة إكس — ولا تختلف إلاّ في وزنها الذري فقط . فاذا أخذنا ذرتين من الهيدروجين ووزنه (١) ومزجناهما مع ذرة أكسجين حصلنا على ماء ، واذا أخذنا ذرتين من الهيدروجين الذي وزنه (٢) — ديتوريوم — ومزجناهما مع ذرة أوكسجين حصلنا على ماء أيضاً ، وهكذا القول في الهيدروجين الذي وزنه (٣) — تريتوريوم — . وهذا ما نقصده عندما نقول بأن النظائر مهما تعددت تتفق في فعلها الكيميائي . وهي أيضاً تتفق في إشعاعها وطيوفها ونشاطها الاشعاعي، بل لها اشعاع واحد يدل على رقم العنصر الذري ـ عدد الالكترونات ـ فذرة الهيدروجين لها الكترون واحد ، والهيدروجين الثقيل ووزنه (٢) لذرته الكترون واحد أيضاً ، وكذلك الهيدروجين الأثقل وزنه (٣) لذرته الكترون واحد . أي ان لهذه الأنواع الثلاثة من الهيدروجين إشعاع واحد، أو بمعنى آخر ان الأشعة السينية المنطلقة من كلٍ من هذه النظائر واحدة . وقال العلماء أيضاً بأن تفاعل النوى يعدُّ ضرباً من التفاعل الكيمائي وهذا صحيح لأن ذلك التفاعل يصحبه طاقة ـ حرارة ـ وتغيير في طبيعة الأجسام المتفاعلة . فالتفاعل الذي نعرفه في مختبراتنا هو اتحاد ذرة أو أكثر من عنصر واحد بذرة أو أكثر من عنصر آخر ، بل بحسب العلم الحديث هو تفاعل بين الكترونات الذرات الخارجية البعيدة عن مركز النواة . وهذا التفاعل لا يؤثر في نوى الذرات لقوة تماسكها وشدة ارتباطها العظيم . ولكن بالرغم من قوة ذلك التماسك فقد توصل العلماء الى طرق رائعة تمكنوا بها من إحداث التفاعل في النوى ، فكما أن الالكترونات تحدث تفاعلاً مع غيرها من الالكترونات ، كذلك سلط العلماء وفي طليعتهم راذرفورد العظيم ، النوى على بعضها علهم يعرفون بذلك كيفية تفاعلها . فاستعملوا نوى العناصر الخفيفة كنواة الهيدورجين . بروتون ، ونواة الهيدروجين الثقيل ، دوتون ، ونواة الهليوم « ألفا » والجسيمات المتعادلة الكهربائية . النيوترونات ، الموجودة في كل نوى العناصر ـ ما عدا الهيدروجين العادي ـ

وسدّدوها الى مختلف النوى ليصلوا الى ما هناك من سرٍّ وتفاعل في قلب الذّرة . فكان لهم ما أرادوا وعرفوا بالتجارب الكثيرة قرابة عشرين نوعاً من تلك الأفعال الكيميائية . وإذا عرفنا أن قنبلة هيروشيما كانت أول ثمرة عملية من ثمار ذلك البحث الخطير ، أدركنا خطورة تلك البحوث والاهتمام الزائد بها . فمن هذا يظهر لنا نوعان من الكيمياء أو الأفعال الكيميائية ، يستأثر كل نوع بأحد قسمي الذّرة ، كيمياء الالكترونات وكيمياء النوى إذا صح هذا التعبير . ولا أدري هل النظريات الكيميائية الحديثة كالنظائر مثلاً يشمل منطوقها كيمياء النواة أم لا . فاذا كان الجواب نفياً وجب أن نعيد النظر في معظم النظريات التي ظهرت وتظهر بعد معرفتنا كيمياء النواة . لأنها لم تخصص نوعاً معيناً فيما ترمي إليه ونقصده . وإذا كان الجواب بالإيجاب ، لزم أن يكون ناموس النظائر عامّاً شاملاً ، أي أنه عند ما نسدد قذيفة ما الى نوى مختلف نظائر العنصر الواحد ، وجب أن تكون النتيجة واحدة ، وهذا غير واقع . ولنأخذ مثلاً على ذلك نظائر الأورانيوم الذي تصنع منه بل من أحد نظائره القنبلة الذرية .

من المعروف أن للأورانيوم ثلاثة نظائر وزن أحدها (٢٣٤) ، ووزن النظير الثاني (٢٣٥) والثالث (٢٣٨) وعند ما جرّب علماء أمريكا تجاربهم الواسعة لشطر نواة الأورانيوم أثناء محاولاتهم صنع تلك القنبلة وقبلها ، ظهر لهم أن النتيجة الحاصلة من تفاعل نواة الاورانيوم رقم (٢٣٥) لا تتفق مع النتائج الحاصلة في النوعين الآخرين ، وهذا هو السبب في صنع القنابل الذرية من الأورانيوم رقم (٢٣٥) دون سواه .

هنا ثلاثة نظائر لها إجماع واحد يدل عليه رقم العنصر الذرّي — ٩٢ — ولكن الفعل الكيميائي فيها غير متشابه وهو مخالف لناموس النظائر الصريح ، وهذا مما يسترعي الانتباه . فما تقدم يتضح لنا أمران لا ثالث لهما .

(الاول) أن يشمل ناموس النظائر الفعل الكيميائي في النوى فيهوي ، لأنّ النواميس العلمية يجب أن تكون أحكامها كلية شاملة لا تقتصر في معناها ومدلولها على نوع دون آخر .

(والأمر الثاني) أن لا يشمل ناموس النظائر كيمياء النواة وتفاعلاتها فيثبت ، وحينئذٍ منضطر الى التخصيص في قوانين الكيمياء الحديثة ما دام لدينا نوعان من الفعل الكيميائي لأنها

مطلقة وإبدالها بأخرى تخصص فيما ترمي اليه نوعاً معيناً من الفعل، وهذا كما رأينا غير واقع

وربَّ معترض يقول بأن الأفعال الكيميائية في النوى هي من اختصاص علم الطبيعة وليس من اختصاص الكيمياء ، لأن الكيمياء قد خصصت قوانينها بالانطباق على الذرات كوحدات مستقلة ولا علاقة لها بالنوى ، ولأن النظريات الحديثة التي تتعلق بالإشعاع وتركيب النواة وشحنتها وتفككها هي نظريات طبيعية تختص ببحث القوى في النواة ولا علاقة لها بالكيمياء . فنقول له ان هذا لا يمنع بأن تكون التفاعلات في النوى أفعالاً كيميائية ما دام تعريف الفعل الكيميائي ينطبق عليها . ولو اختصَّ علم الطبيعة بمعالجتها . فكما ان بعض البحوث الطبيعية لا تخرج عن دائرة الطبيعيات ولو احتضنتها الرياضة العالية ، كذلك الأفعال الكيميائية وكل ما يتصل بهذا البحث من قريب أو بعيد هو ضمن دائرة الكيمياء وتحت كنفها ولا عبرة للآلات الطبيعية التي تكشف لنا كل يوم عن أسرار جديدة وتذلل ما استعصى علينا فهمه في كثير من الحالات الكيميائية المستغلقة . فهذه الأدوات الطبيعية اياها هي التي يستعملها العلماء الآن في كافة القضايا العلمية تقريباً . وعلى الأخص البحوث الفلكية والبيولوجية . ومع ذلك يظل كل بحث إحدى حلقات علمه الخاص ولو أضيف اليه كلمة طبيعية ، في كثير من الحالات .

أنا أدري بأن التجرء على الشك في إحدى النظريات العلمية ليس بالأمر الهين اليسير ، بل محفوف بالمزالق، شائك المسالك . وأنا أدري أيضاً بأن القضايا العلمية الصرفة وخاصة الطبيعية والكيميائية لا تقبل الجدل السفسطي، ولا يؤثر في جوهرها سحر البيان، ومعسول الكلام . وقد تقلص سلطان الفلسفة على العلم ، حتى أصبح عاجزاً عن أن يضيف أو ينقض مبدأ في إحدى المسائل العلمية . ولكنني برغم كل ما أدريه من ذلك ، أرى نفسي مرغماً بناءً على ما أسلفت من الأدلة والبراهين على الشك اما في صحة ناموس النظائر ، أو في سلامة علم الكيمياء من البلبلة ، وإنه في حاجة ماسة الى تنظيم جديد شامل على ضوء البحوث التجريبية الحديثة في نوى الذرات .

السلط جريس الشمرايخ

الرادار

كيف يشتغل

قلما سمع القرّاء قبل نهاية الحرب الأخيرة باسم الرادار ، في حين أنه كان موجوداً قبلها ولكنه تطوّر في أثنائها تطورات كثيرة . كان مستعملاً عند الألمان كما كان مستعملاً عند الحلفاء . ولعب أدواراً عظيمة في الحرب . وله نصيب غير قليل في انتصار الحلفاء ، ولاسيما في الدور الأخير حين كان الحلفاء ينزلون جنودهم وعتادهم في نورمندي (فرنسا) . وكانوا يشوّشون بمهارة فائقة على رادار الألمان لكي يضللوهم عن الشاطىء الذي كانوا ينزلون فيه . فكانوا يرسلون أشعة تعمي رادار الألمان وينزلون بالهابطات جنوداً من الذي في الشمال لكي يوهموا الألمان أنهم هناك سينزلون فيحولون معظم قواتهم الى تلك الناحية فخلا الجو للحلفاء عند نورمندي . وما شعر الألمان بحيل الحلفاء إلاّ بعد أن سبق السيف العزل .

كلمة رادار مؤلفة من الأحرف الأولى من هذه الجملة Radio Detection and Ranging ولكن الكُتَيِّب الذي نقتطف منه هذا المقال ، وقد طبعته الحكومة الأميركية ثم الحكومة الانكليزية كان يفضِّل أن تكون من هذه الجملة Radio Direction and Ranging في كلتا الحالتين يبقى الاسم « رادار » Radar

ولا يخفى أن أسلحة الطيران في الحرب الأخيرة لعبت أهم الأدوار كما نعلم . وإذا كانت الحرب خدعة بحسب القول السائر فلاستتار الطائرات بالغيوم والضباب وحلك الليل وثورات الجو مزية عظمى في المخادعة لأنه يقيّض للطائرات خير فرصة للمباغتة ، فلا يدري العدو بمفاجآتها إلاّ وهي تمطر قنابلها . ولكن الرادار قد قضى على هذه المزية للطائرات المفاجئة لأنه كان يخترق هذه المعمّيات وهذه الحجُب مهما كانت كثيفة . فهو خير وسيلة للدفاع ضد الطائرات المعادية .

وقد بلغ الطيران من السرعة نحو نصف سرعة الصوت أو ثلثيها . ولذلك لم يعد هزيم الطائرات نذيراً بهجومها لأنها تصل الى هدفها قبل أن يخرج الخصم لملاقاتها . ولكن الرادار ينذر بقدومها وهي على بعد عدة عشرات الأميال .

ثم إنه يتعذر جدًّا على الباصرة أن تكتشف ارتفاع الطائرات المحلقة في طبقات الجو العليا واتجاهها لكي تقصد إليها الطائرات المدافعة أو تسدّد إليها المدافع الأرضية المقاومة ولكن الرادار كفيل بذلك . ليس هذا فقط بل ان الأهداف التي لا ترى لمُختلَف الأسباب يكتشفها الرادار ويعين مواضعها تعييناً دقيقاً مُحكَماً فتناله بأفضل مما لو أرصد النظر بالمنظار .

منذ أكثر من سنتين كانت طائرة ذات راكبين : السائق ومساعده قادمة من ناحية فلسطين . فلما دخلت في جوّ الصحراء اصطدمت بعاصفة رملية هوجاء تعمي الأبصار . ولما أوغلت لم يعد سائقاها يريان شيئاً حتى ولا عن بعد متر واحد . ولم يعودا يدريان طريقاً للخروج من ذلك الجو المخيف ولا للرجوع منه . وحاولا أن ينزلا الى الأرض فلم يستطيعا خوفاً من كارثة الاصطدام والتحطيم وقررا الرجوع ، فكان أشد خطراً ، الى أن نفد الوقيد فحاولا الهبوط . فوقعت الكارثة التي كانا يجاهدان في اتقائها وهبطا على غير هدى فتحطمت الطائرة وتحطما معها . فلو كان الرادار في خدمتها فيها واليها لسلما .

لم تقتصر فائدة الرادار على اكتشاف ما في البر والجو من أهداف بل تناولت أهداف البحر أيضاً . ففي وسع السفن ان تستجلي ما دونها من أخطار البحر مهما كان ضباب الجو كثيفاً وكانت الأسلحة البحرية تضرب سفن العدو من غير أن تراها رؤية العين لأن الرادار كان يرشدها اليها على الرغم من كثافة الضباب حتى ولو كانت وراء الأفق . والآن تستطيع السفن والبوارج المجهزة بالرادار ان ترى البر وجباله والحضيض وبحيراته وأغواره مهما اعترضت الحُجُب .

انه لجهاز عجيب ذو عِدَد وعدَد من الموظفين تحت نظام أعجب . فكيف يشتغل الرادار ؟

كيف يشتغل الرادار

اختُرع الرادار عن طريق الراديو أو هو تطوّر منه ، بيد انه يختلف عنه بأن جهاز الارسال وجهاز الاستقبال كليهما في بلدة واحدة ، ويندر أن يكون لهما سلك Antenna واحد للارسال والاستقبال . بل لكل من الفرضين سلك واحد خاص به . ولكنهما كليهما في عدة واحدة .

الجهاز المرسل الأشعة الموجبة يرسل الطاقة القوة في ضوء صغير جدًّا من الوقت ينفث هذه الطاقة نفثة واحدة في لحظة لا يُشعر بها تسمى نبضة . يمكن أن تصدر هذه النبضة في جزء واحد من المليون من الثانية .

لا تستغرب هـذا ! إن معظم حركات الطبيعة سريعة هكذا . تُقضى في هنيهات من الزمن متتابعة لا تقاس بالثواني بل بأجزاء من المليون من الثانية . الثانيـة هي وحدة الزمان في نظرنا . وبها نحسب الدقائق والساعات والأيام والسنين والقرون . ولـكن ثانيتنا في نظر الطبيعة قرون بل أدهار . ووحدة الزمن عند الطبيعة هي هذه النبضة الخاطفة . وحسبنا أننا فهمنا هـذا . وأمكننا أن نحسب وحدات الحركة ، أي هذه النبضات ، التي سماها بلانك العلاّمة Quantum ونحن نسميها « المقدار » : وسنرى في الطبيعة العجب وأغرب من هذا .

بعد كل نبضة يتوقف الجهـاز المرسل عن الإرسال هنيهة من الزمان أطول من هنيهة النبضة — يتوقف بعض أجزاء الألف من الثانيـة الى أن ينفث النبضة التالية . وفي أثناء الفترة بين كل نبضة وأخرى يكون الجهـاز المستقبل عاملاً عمله . فالاشارات التي يستقبلها هي شـبه صدى للنبضات القوية التي أرسلت فانعكست عن الأشباح والأجسام القريبـة أو البعيدة . أقرب الأجسام ترد صدى النبضات عاجلاً . والأجسام البعيـدة ترد الصدى متأخراً . وهكذا الأقرب أعجل والأبعد أبطأ كما هو مفهوم بالبديهة . إذن فالفترة بين إرسال النبضة واستقبال الصدى تقرر مقدار بُعدِ الجسم عن الجهاز — من سفينة أو طائرة أو جبل أو بناية الخ .

هذا ممكن لأنه طبيعي أي لأن الفترة هي المدة اللازمة بعودة النبضة التي ترحل بسرعة النور وتعود بهـا . والنور كما هو معلوم سريع جداً . ولذلك فالفترات المشار إليها قصيرة جداً . وقياسها هو من الخصائص الفنية المختصة بعلم موظفي الرادار . وهو ما لا يستطاع شرحه هنا بل له دراسة خاصـة . وهو أحد وسائل نجاح الرادار الحديث في معرفة أبعاد الأجسام والاجرام ، بدقة عجيبة . وقد قرأنا في أخبار الصحف في الصيف الماضي أن أحد العلماء أرسل أشـعة رادار الى القمر فعاد إليه صداها وعرف منه المسافة بينه وبين القمر بأدق وأهمّ مما كان معروفاً عنها .

ولما كان النور يسير بسرعة ١٨٦٠٠٠ ميل أو ٣٠٠ ألف كيلو متر في الثانية أو بعبارة أخرى ٣٠٠ متر في جزء من مليون من الثانية ، وكان عليه أن يرحل رحلتين : ذهاباً وإياباً ، فالمسافة من الرادار الى الهدف — قل انها ١٠٠٠ متر مثلاً — ترد الصدى في ستة أجزاء من الثانية بعد صدورها من الجهاز المرسل . هذا مدى قصير بالنسبة الى الرادار قبل الحرب . وأما الآن فصار في الامكان قياس مسافة ٥ أو ٦ أمتار بالرادار بكل تدقيق ، أي في مدة جزء من ٣٠ من المليون من الثانيـة — أفلا تعجب وتستغرب وتتحير في مقدرة هذا الانسان الذي استطاع أن يحصي هذه المدة التي هي كأنها لا شيء من الثانية .

إن استعمال النبضات المشار إليها يؤدي وظيفة بسيطة في قياس المدى كما رأيت. بقي أن نعلم كيف يرشد الرادار إلى الجهة التي يكون فيها الهدف.

يرشد الرادار الى الهدف بتجهيزه اسلاك التوجيه التي ترسل النبضات في حبال شعاعية كأشعة الأنوار الكشافة التي كنا نراها منطلقة من أجهزة على الأرض الى الجوّ في مدة الحرب لاستكشاف طائرات العدو.

يمكن ادارة هذا السلك الناتىء Antenna (كسلك الراديو الذي نراه على السطوح) الى جهات مختلفة في أثناء ارسال النبضات الى أن يعود صدى (شعاعي) عن جسم ما فيلفت النظر اليه كطائرة أو سفينة أو بحر أو بحيرة أو جبل الخ. فيكتشف الهدف المراد. وحينئذٍ يمكن الحصول على ومضة أو نبضة راجعة قوية كصدى للنبضة التي صدرت اذا وجهنا طرف السلك المستقبل الى الهدف الذي وقعت عليه الشبهة.

فاتجاه السلك الذي هو نفس اتجاه الهدف يمكن ان يقرأ أو يشبه في لوحة الرادار (التي ذكرت سابقاً) ويدل على السفينة أو الموقع أو اتجاه الطائرة المقبلة أو المدبرة الخ. ثم يوجه بموجبه اطلاق القنبلة على العدو أو قطع الطريق عليه أو قضاء أي غرض من الأغراض المبتغاة

وهناك وسيلة أخرى للاستدلال البصري على موقع الهدف واتجاهه وبعده. وهي استعمال الآلة المسماة «المرشد الى الموقع» Plan Position Indicator بوساطة هذه الأشعة ترسم أصداء الرادار خريطة على صفحة طرف انبوب تمرّ فيه شعاعة الكاثود الواردة عن يد السلك المستقبل المشار اليه آنفاً.

وهنا لا بد من افهام القارىء ماذا يراد بالكاثود هذا. الكاثود هو القطب السلبي من أي مجرى كهربائي (وضده الآنود أي الطرف الايجابي). والكاثود ينفث فئات الكترونات تعبر من هذه النبضات المذكورة آنفاً بشكل شعاعات ينفثها بقدر حدة التيار الذي يرد اليه. فاذا كان السلك الناتىء من الرادار يلتقط هذه الاصداء (أو هي تصدمه) فهي بطبيعة الحال تنتهي عند الكاثود المتصل بالسلك الملتقط. ولذلك ترسم هذه الأصداء على اللوحة التي في فم أنبوب الكاثود. ولما كانت الأصداء مختلفة القوة والمدة فتظهر على لوحة الكاثود مختلفة الاشكال أيضاً (كما أن الأصوات في الراديو تصدر مختلفة النبرات بسبب اختلاف قوة الصوت وحدته).

والموظف العامل في الرادار يمكنه أن يتصور نفسه كأنه مقيم فوق الجهاز سواء كان في سفينة او في طائرة او على الارض وناظراً الى المنظر الذي تحته.

ومهما كثرت او قلت الاهداف التي يتجه اليها الرادار او يوجه اليها سلك الارسال،

فكل هدف يلقي على صفحة أنبوب الكاثود المذكور نقطة ضوء خاصة به . وشكل هذه النقطة الضوئية واتجاهها وبعدها عن المركز تدل على مدى الهدف أو بعده وحقيقته . فاختلاف النقط الضوئية ومواقعها حول المركز يعطيك خريطة الأهداف جميعاً على اختلاف أبعادها وأشكالها .

ليست هذه الخريطة كما ترى في صفحة التلفجن Television اي صورة السفينة او صورة الطائرة الخ . وانما هي علامات متباينة يفهمها الذين درسوها ومارسوها والذين اختبروها قبلهم واستقروها من موظفي الرادار كأنها لغة قائمة بذاتها يفهمونها فهماً أكيداً .

أعجب من كل ذلك أن اصداء الرادار تريك وتفسر لك الأشباح عن بُعد أمتار . ففي البارجة حيث يقتضي الأمر معرفة المدى الذي يطلق إليه مدفع ذي ١٦ بوصة مثلاً يمكن اصداء الرادار أن تعلن لموظف الرادار المدى على بُعدٍ قريب حتى على بعد بضعة عشر متراً .

في حالة الدفاع ضد الطائرات تتوجه أطراف أسلاك الارسال والاستقبال من تلقاء نفسها بحيث أنها تظل متجهة الى الهدف الطائر من غير تدخل العامل سوى التوجيه الأول والمدافع تتجه من تلقاء نفسها أيضاً الى الهدف . وذلك بحركة أولية تؤتى في الجهاز . ومتى تحركت الأجهزة فيه اشتغلت من تلقاء نفسها . وأغرب من ذلك أن توجه الطائرة المقاتلة من مكان بعيد من غير راكب فيها يديرها وإنها تدار باللاسلكي من مكان الادارة على الأرض .

وهناك أنواع من الرادار حديثة ذات خصائص عجيبة . فمنها رادار يميز بين صدى وصدى أو بين هدف وهدف . وأصداء كل هدف دون آخر . ومدى كل منها ، وهو أمر يتوقف على حدّة أشعة الرادار الصادرة منه . وهذه تتوقف على ثخانة سلك الارسال أو الاستقبال وحجمه ، لأن الشعاعة تكون أحدّ وأشد كلما قصرت موجة الارسال . ولأن اتساع الشعاعة يناسب طول الموجة . .

الرادارات القديمة كانت تشتغل على الموجات الطويلة عدة أمتار فكانت تتسع الأشعة بنسبتها . أما رادار اليوم فكالراديو الحديث يتقدم رويداً في استعمال أقصر ما يمكن من الموجات القصيرة وكلما تقدم هذا أمكنه أن يسجل الاهداف على بُعد بضعة أمتار إذا لزم الامر حتى على بُعد متر ونصف . وكلما نجح في هذا السبيل نجح في تسجيل التفاصيل أو توريتها .

حتى مَ يشطح هذا الانسان في العلم والاختراع ويتراجع في الآداب ومقتضيات الاجتماع ؟

نقولا الحداد

النار

قال إبليس حين أمره الله بالسجود لآدم . « أنا خير منه خلقتني من نارٍ وخلقته من طين ، قال فاخرج منها فانك رجيم .. »

وقال موسى لاهله حين آنس من جانب الطور ناراً . « امكثوا إني آنست ناراً لعلي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى ، فلما أتاها نودي يا موسى إني أنا ربك .. »

لفتتكَ بعدُ ، وإنها   بين الورى شيء لفوتْ
تحيا على الظمأ الشديد ،   وحينما تسقى تموت
ولسانها   يمتد لكن   لا يفارقه السكوت
تركَ الكلامَ ، وليس يترك   فرصة أبداً تفوت
ولطالما خاب القؤو   ل ، ونال بغيته الصَّموت
يا نار أضللتِ «الرجيمَ»   فحاد عن نهج القنوت
وهديت يا نارُ « الكليمَ »   فنال قوتاً أيَّ قوت
يا نار فيك بَنتْ « أنا »   لكن بناءَ العنكبوت
وبَنتْ « لعلِّي » بيتها   فعلاً على كل البيوت
يا نار قد أثَّرتِ لكن   حسبما اقتضت (البخوت)
هذا أعدَّ للامحا   ء ، وذاك هيِّئ للثبوت

شاعر البرارى

الادب الرخيص

حضرة رئيس تحرير المقتطف :

أرجو أن تأذنوا لي بكلمة تلحقونها بمقال الأستاذ ا : م بعنوان « صحافتنا تنحدر » . وهو مقال يشفي الغليل فيما بلغت إليه أكثر المجلات العربية من إفراز الزبد الطافي على وجه العلم والأدب .

لقد أنحى هذا الكاتب المتألم باللائمة على الكتّاب لأنهم طلّقوا العلم والأدب الحقيقي وارتموا في أحضان الصحافة التي تتاجر بلهو بسطاء القراء . لعلّ هؤلاء الكتّاب معذورون إذا كان القلم سبب عيشهم ، ولا يرزقون إلاّ من شق القصبة . لأن أصحاب المجلات يرفضون منهم البحوث العلمية والأدبية الراقية . ولا يقبلون منهم إلاّ الغث الفكه بحجة أن سواد القراء لا يفهمون البحوث العلمية .

⁂

قدّم أحد المثقفين ثقافة « عالية » مقالاً نفيساً في موضوع علمي يمتّ الى إحدى النظريات العلمية الحديثة التي يود العالم والبسيط أن يعلمها أو يعلم شيئاً عنها . فرفضه عبقري الصحافة بدعوى أنّ القراء لا يفهمون هذه البحوث ولا يستلذونها . وإنه لا ينشر في مجلته إلاّ ما يروق لعامة القراء وهم السواد الأعظم .

عجباً من هم القراء غير خريجي الكليات والجامعات والأزهر ، ثم طلبة هذه الجامعات والكليات ، أليسوا هم السواد الأعظم من القراء ؟ بل هم القراء كلهم ، وما هم بالقليلين . بل هم الذين يموّلون هذه الصحف والمجلاّت .

فقال صاحب المقال لصاحب المجلة : ألا تظن أن بين قرائك عشرة في كل مئة يفهمون هذا المقال ويستمرئون هذا الموضوع ؟ . نخصّص في مجلتك عشر صفحاتها لهؤلاء .

فقال : إن هؤلاء الذين تعنيهم لا يقرأون مجلات عربية ، بل يقتصرون على قراءة المجلات الأجنبية فأمرهم لا يهمني .

— طبعاً لا يقرأون مجلات عربية لأنهم لا يجدون إلاّ في النادر منها الغذاء العلمي

لعقولهم . قدِّموا لهم كل ما يستجدّ من البحوث العلمية الحديثة تجدوهم يقبلون على مجلاتكم ويجنحون عن المجلات الأجنبية .

أقول بكل أسف أن تجار الصحافة لا يرمون بصحافتهم إلى بنيان الثقافة في الأمم العربية بتاتاً، ولا يبتغون إلاَّ تفكهة بسطاء القراء لكي يبتزُّوا أقصى ما يستطيعون من المال . ولكنهم مخطئون بهذا الظن ، لأنهم إذا أضافوا الى جانب الفكاهة الصحفية جانب الفائدة العلمية والأدب الراقي ، أضافوا الى قرائهم قراءً آخرين يَزيدون مكاسبهم .

ولا بدع فان معظم تجار الصحافة لا يعرفون إلاَّ أن الأدب العائم المزخرف هو الثقافة العلمية الراقية عندهم . وقد جهلوا أن مدنية الأمم ليست نتيجة هذا الأدب الطائش ، بل هي ثمرة العلوم الطبيعية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية حتى الفلسفية . فالقنبلة الذرية لم تكن ثمرة شعر شكسبير ، أو « لنغ فلو » ، ولا أدب مارك توين ، وأناطول فرنس وغيرهم . هي ثمرة علم روذرفورد ، واينشطين ، وبلانك ، ومكسويل ، وشادويك ، ولورانس ، وبوانكاره (العالِم) وأمثالهم

فكيف نتوقع أن تكون لنا مدنية عربية جديدة اذا استرسلنا في الفكاهات والقصص والأدب العربي القديم ، الذي نلوكه ظانين اننا نمحصه ونهذبه، فلا نلبث أن نرانا قد تقيأناه فاسداً نتناً .

نحن الآن في عصر العلم الناضج ولا نستطيع أن نجاري الأمم المعاصرة الاَّ اذا شاركناها في الثقافة العلمية . والاّ فاذا اقتصرنا على الأدب السخيف الفكه الذي لا غذاء منه للعقل العلمي فكأننا نتقهقر الى عصور الجهالة والخرافات .

ويا ليتنا نعود بهذه القهقرى الى عصر العرب العلمي القديم ، فكأننا نعود الى أسس العلم الحديث . فقد عرف العرب أن أساس المدنية هو العلم، فطرقوا كل باب علمي على قدر ما بلغ اليه العلم في زمانهم ، فأخذ الأفرنج عنهم علمهم كأساس وبنوا عليه .

ولكن بكل أسف لم نعد الى الأدب العربي القديم الاّ للتفكه في أمثال الف ليلة وليلة والسندباد .

ان هذا التقصير في خدمة الثقافة العامة التي نبني عليها مدنيتنا هو تقصير صحافتنا أولاً وجهالة تجَّارها ، ولا ذنب فيه لعلمائنا وأدبائنا وبحّاثنا . فهؤلاء منبوذون من الميدان . والميدان لم يُبَح الاّ لسقط المتاع . فلا حول ولا قوة إلاَّ بالله .

(. . . .)

ثورة في الأدب (١)

احمل قلمك واتبعني!

سيداتي وسادتي!

الذي أقوله الآن لستُ أوَّل مَن نادى به، ولكنني واحد ممَّن يؤمنون به أشدّ الإيمان، وممَّن يتحمّسون له بكل قوة، وبكلّ إخلاص، لأنهم يرون في الدعوة إليه رسالةً لا بدّ من تأديتها. ولقد سبقني إلى هذه الدعوة، وإلى حمل هذه الرسالة الأدبية كثيرون، وعلى رأسهم جبران خليل جبران، ونعيمة — في « غرباله » بنوع خاص — ونعمة قازان في « معلقة الأرز »، ومحمود شريف في « ثورة قازان » وسبقني إليه جماعة التجديد في مصر، غير أنّ دعوة المصريين إلى التجديد لم تنتج كثيراً، وليس من السهل أن تنتج كثيراً، لأسباب من البيئة، ومن الظروف التي تخنق تلك الدعوة. لذلك ظلت — في الغالب — في حدود المهاترات الكلامية — والقليل منها يعمل صامتاً —، وظلّ صوت الرجعية المحافظة أقوى وأعلى من صوت التجديد والانطلاق والإبداع. وتبعاً لذلك قلَّ العمل الحقيقي من جانب دعاة التجديد، ذلك العمل الذي هو وحده يستطيع أن يثبّت أصول دعوتهم ويقيم صروحها شامخة زاهرة، بينما انصرف أدباء المهجر الى العمل الجدي، الذي سرعان ما قلبَ الأوضاع الأدبية، وفتح العيون على كل جديدٍ حيّ، فيه متعة للروح وغذاءٌ للقلب، وسموّ بالنفس الى ما فوق مستوى الطين. وهكذا قدر للثورة الأدبية المهجرية أن تكون أوسعَ الخطوات أثراً في تقدُّم الأدب العربي الحديث، وفي سعة آفاقه. ولولاها لظلّ أقصى ما يمكننا إنتاجه في حقل الأدب، لا يخرج عن أمثال « مجمع البحرين » و « نجعة الرائد » و « حديث عيسى بن هشام »، وما إلى هذه السفاسف المتهرّئة التي ضاعت فيها جهود، وفنيت أعمار، وهُدرت مواهب ما كان أخصبها وأغناها، وما كان أقدرها على ان تنتج انتاجاً كثيراً قيّماً لو عرفت الطريق. ويا لخيبتنا لو كان هذا كلّ ما يمكننا أن ننتجه في الأدب!

أقول « الأدب » وأنا أرى هناك اختلافاً كبيراً في تحديد معنى « الأدب » وفي فهم

---

(١) محاضرة أدبية علمية

أهدافه وغاياته . فالأدب ، كما لا يزال السواد الأعظم — للأسف الشديد — يفهمه ويجري عليه ، هو رصف الألفاظ والجُمَل : هو اللغة ، أو اللغة هي أهم ما فيه ، وهي ألفه وياؤه وهي جوهره وغايته .

ألا ترون اننا لا نزال حتى اليوم ، حينما نريد أن ندرس الخصائص الأدبية لعصر من العصور ، أو لجيل من الأجيال الأدبية ، أو لأديب معيّن من الأدباء ، إنما نقف قسماً كبيراً من الدرس على بيان المزايا « اللغوية » لذلك العصر ، أو لذلك الجيل من الأدباء ، أو لذلك الأديب الذي ندرسه ؟

أوَ ما ترون أننا حين نريد أن نتحدّث عن الفرزدق مثلاً لا نجد أبلغ في الدلالة على علوّ كعبه في الأدب من أن نقول : « لولا شعر الفرزدق ، لذهبَ ثلث اللغة العربية » ؟ وحين ندرس أدب المتنبي أو المعرّي أو غيرهما نقول إنهما كانا بصيرين بدقائق اللغة ، عارفين بأحوالها وأوضاعها ؟ . وحين ندرس عصراً من العصور الأدبية ، نذكر مدى ما أصاب « اللغة » فيه من رقيّ وانحطاط ، وما دخلَ عليها من ألفاظ أعجمية ، وما تعرّب ، وما اشتُقّ ، وما نُحتَ من ألفاظ ، وما دخلَ من تزاويق لغوية ندعوها بياناً ، أو بديعاً ، أو بلاغة : جناساً ، أو استعاراً ، أو كناية ، أو تورية ، أو ما إليها من سماجات لا نزال نحشو بها عقول القرّاء ، كأنها العلم كله ، والأدب كله ؟

وفي المدارس أيها السيدات والسادة ! في المدارس ، أما ترون أننا لا نزال الى اليوم ، برغم ما نزعم لأنفسنا من انفساح آفاقنا ، وسعة اطلاعنا ، وغزارة علومنا ومداركنا ، لا نزال نفرض على الطلاّب فرضاً أن يكون أوّل ما يدرسونه في « تاريخ الأدب » امرؤ القيس وإخوانه ، ممّن حضنتهم الصحراء قبل نحو خمسة عشر قرناً ، بألفاظهم الخشنة ، وتعابيرهم الصحراوية ، وخشونتهم البدوية ، وبكل ما لديهم من ميزات تباعد بين عصرهم وعصرنا ، بين أذواقهم وأذواقنا ، بين فهمهم للأدب وفهمنا ، وبين حياتهم وحياتنا . ثم نفرض عليهم أن يسيروا في هذه الدراسة العقيمة المملّة قُدُماً ، وعلى هذا النسق العقيم المملّ ، الذي لم يخرج عليه واحد ممن أرّخوا الأدب العربي للمدارس في العصر الحديث ، حتى إذا وصلنا الى عصر جبران ، ونعيمة ، وأبي ماضي ، والريحاني وفوزي المعلوف ، وشوقي ، وحافظ ، ومطران ، وطه حسين ، وبشاره الخوري ، وأبي القاسم الشابي ، وأبي ريشه ، قلنا لهم — لهؤلاء الطلاب المساكين ، الذين يريدون أن يعرفوا شيئاً يناسب عصرهم ، فيعطون أشياء تبعدهم عن عصرهم خمسة عشر قرناً ، أو تزيد أو تنقص — قلنا لهم : قفوا أيها الطلاب ، ولا توغلوا بعيداً ! فالأدب كله عند امرىء القيس وطرفة وابن حلزة ، وعند

الحطيئة وجرير والفرزدق ، وعند بشّار وأبي نواس وصريع الغواني ، وأضراب هذا الطراز القديم . وإذا خطر لنا أن نقدّم لهم شيئاً من أدب العصر الحاضر ، قلنا لهم : دونكم البارودي وحفني ناصف ، والرافعي ، ودونكم المنفلوطي والشدياق واليازجيين والبستانيين ، ودونكم ودونكم من إخوان هذا الطراز العتيق الذين عاشوا في عصرنا الحديث بأجسامهم ، وفي أقدم عصور التاريخ بعقولهم ، وليست ثمة ميزة تميز آدابهم عن آداب من سبقوهم في عمر التاريخ ، فهم وإيّاهم كتّاب ألفاظ . . . ألفاظ جافة تسرّبت منها الحياة قبل أن تصل الى رؤوس اقلامهم . . . ألفاظ وتزويقات ألفاظ ، غايتُها أن تحفظ للعربية قواميسها الى الأبد فكأن القواميس — أو على الأصحّ ، النواويس العفنة ، نواويس العقول ، ومقابر العلوم والآداب — كأنَّ هذه هي العلم كله . وهي الأدب كله ، ثم يزعم بعد ذلك ، ولا نستحي أن نفاخر في القرن العشرين ، بأننا نلقّن أبناءنا علماً وأدباً . وصدّقوني ، سيداتي وسادتي إنّ الطالب لا يكاد يصل من دراسته للأدب العربي الى عصر النهضة ، حتى يكون قد ملّ الأدب ، وعاف درس الأدب ، واشمأزّ كل الاشمئزاز من هذه السماجات التي اردنا أن نجعل منها « مشهيّات » تحبّب إليه الأدب ، فإذا بها « منفّرات » منه ، مرغّبات عنه . وهكذا ننشىء من الطالب عدوّاً للغته ، ولآداب لغته ، من حيث أردنا أن نحبّبهما إليه . والسبب في ذلك سوء إدراكنا لما يجب أن نقدّمه اليه أولاً . ولو نحن سرنا في كتابة تاريخ الأدب العربي ابتداءً من عصرنا الحاضر ، راجعين الى الخلف ، وأحسنّا اختيار ما نقدّمه من أدب العصر الحاضر ، لعرفنا كيف ننمي في الطالب حبّاً لغته ، وحبّ آدابها وغرسنا في نفسه شوقاً الى الاستزادة من ينابيعها القديمة والحديثة على السواء . ومتى وصلنا الى هذه النتيجة ، نكون قد نجحنا أعظم نجاح في تأدية رسالة الأدب والتربية معاً .

إنّ العلم والأدب غايتهما خدمة الحياة ، وخدمة المجتمع . فهل في ما تدرّسه مدارسنا مما نسميه « تاريخ الأدب العربي » و « علوم العربية » شيء من هذا ؟ هل فيه شيء ؟! . . . هل فيه شيء ؟! . . .

لو كان إليّ أمر الدروس العربية في كافة المدارس ، لما تردّدت لحظة في حرق القسم الأكبر من الكتب التي ندرسها فيها ، ولما أبقيت على شيء مما نسمّيه « علوم العربية » : العروض — جريمة الفراهيدي على الشعر — ، البيان ، البلاغة ، القواعد ، وأخيراً تاريخ الأدب العربي في حالته الحاضرة ، لأنه ليس في كل هذه ما يصلح للحياة ، ونحن بعدُ نفرضها على طلاّبنا المساكين فرضاً ، ولا نكتفي بذلك ، بل نمنح المتفوقين فيها الشهادات : الشهادات التي معناها أنهم تعلموا شيئاً ينفعهم للحياة ، ويفتح عيونهم على حقائق الحياة ،

ويوسّع نفوسهم وقلوبهم لممارسة الحياة ، ولإصلاح المعوجّ من أمورها ، ويفسح مداركهم ومعارفهم وآفاقهم . ثم نحن نمنع هذه الشهادات نفسها عمّن يعجزون عن التفوق في هذه الحماقات التي ندعوها علوماً وآداباً ، وكأننا بهذا نسجل على هؤلاء المساكين أنهم غير مزوّدين بسلاح لجهاد الحياة ، وبمعنى آخر نسجّل عليهم أنهم قصّروا في فهم البيان والبديع ، وفي حفظ شعر امرىء القيس والأعشى ، ومعرفة حياتهما ومميزاتهما ، وقصّروا في حفظ العروض ، بزخارفها وعللها ، ولم يحفظوا وصايا الخليل ، وسيبويه ، والدؤلي والأخفش التي تعلمهم أن « دعا » أصلها « دعو » ، وأنّ « ميزان » أصلها « ميوزان » ثم درجت عليهما قواعد الإعلال . . . القواعد التي نريدها أن تظل علة سرمدية خالدة في جسم اللغة العربية وآدابها .

أرأيتم أي سلاح خسر أولئك الطلاّب المساكين الذين لم يعرفوا ذلك كلّه ؟ !

إن سادتنا القوّامين على شئون اللغة والأدب ، يقولون إنّ هذا هو سلاح الحياة ومفتاحها ، وإنه عمادها وقوامها . أما نحن ... أما نحن ، أيها السيدات والسادة ! فنقول : إن هذا عبث وسخف ، ! . . فعلّموا طلاّبنا علوم الحياة ، لا علوم اللغة القديمة ، واتركوا هذا الذي هم الآن مجبرون على درسه للذين يهمهم التخصص ، والبحث عن القديم ؟ وبكلمة أخرى لمن يريدون أن تكون عقولهم « متاحف » ودور آثار . . . على أن لا يكون ذلك قبل انتهاء الدراسة الثانوية كاملة . . .

اطرحوا من الكتب المدرسية ، من القواعد : ما كان مملاً متشعباً ، متناقضاً ، كثير الوجوه والجوازات ، واطرحوا سائر السفسطات اللفظية التي تتألف منها علوم البلاغة والعروض . اطرحوا هذه كلها جانباً ، وعلموا الطلاّب بدلاً منها أشياء تفيدهم في الحياة . وأما الأدب العربي — ولا محيص لنا عن تدريس الأدب ، لأنه غذاء القلب والروح — فلنعلّمهم منه آداب العصر الحاضر ، أو الحيّ وحده من أدب العصر الحاضر . ولنترك القديم البالي ، لأصحاب القديم البالي ، وإذ ذاك فامنحوا الطلاب المتفوقين الشهادات ، وامنعوها عن المقصرين ، لأن المنح والمنع حينئذ يكونان عن فهم ، وعن حق ، وعن ضمير مخلص أمين .

* * *

هذا شيء – أيها السيدات والسادة ! — ، وشيء آخر لا يقلّ عن هذا تأخراً وعقماً وزراية ، وهو في غير المدرسة . . . فحينما نريد أن نعمل على نهضة « الأدب » أتدرون ماذا نعمل ؟ . . اتدرون ماذا ؟ !

إننا ننشىء المجامع اللغوية ! . . . ، نعم المجامع اللغوية ، ونكدس فيها المعاجم ، وكتب اللغة الصفر من عهد سيبويه ، حتى عهد ابراهيم اليازجي ، ونحبس معها الرجال — ذوي العقول الصفر ، أسوة بالكتب الصفر — ليعيشوا في أزمانها ، ويغذوا عقولهم ، وعقول الناس — ويالها من تغذية قاتلة ! — بما يطاردونه في بطونها من لغوٍ وهراء ، ثم . . . ثم يطلعون علينا بعد سهر الليالي ، وطول الكد والعناء . . . أتدرون بماذا يطلعون علينا ؟ . . إن أقصى ما تصل اليه آداب هؤلاء « المجمعيين المعجميين » هو أن يربطونا — والعياذ بالله — بأذناب الكسائي ، والأخفش ، والدؤلي ، وسيبويه والفيروزابادي ، والجوهري ، وابن منظور ، والأصمعي ، والزمخشري ، يربطوننا بأذنابهم الى أبد الآبدين ويكفي ان يقولوا لنا : « قال فلان » من هذه الشرذمة البائدة ، ليحسبوا انهم قد طلعوا على الدنيا بجديد . جديد يلخص كل أغراض الحياة في كلمة ! . .

أجيبوني ، أيها الناس ! : أإذا قال الأصمعي أو الجوهري ، قالت الحياة ؟ !

أقاس النحاة حدود الزمان ومرمى خيالي وعقليتي ؟

كما يقول نعمة قازان . وهل ماتت حقائق الحياة ، وعبرها ، وحاجاتها كلها معهم ، حتى نعيش أعمارنا على نبش قبورهم لنأخذها عنهم ! ؟

لقد قال أولئك القوم لأزمنتهم ولأجيالهم ، فلماذا لا نقول نحن لأزمنتنا ولأجيالنا ؟ لقد أدّوا في زمانهم ما كانت عقولهم ، التي هي بالنسبة الى زمننا الحاضر قاحلة كالصحراء عقيمة ككتبهم الصفر ، تحسبه رسالة الأدب — وما أبعدهم عن فهم رسالة الأدب — فلماذا لا نؤدي نحن بدورنا في زماننا ما نعرف أنه رسالة الأدب في الحياة ؟ ولكن لا كما كانوا هم يفهمونها ، بل كما يفهمها عصرنا . وشتان ما بين فهمهم وفهم عصرنا !

هم في أزمانهم كانوا يحسبون أنفسهم مبتدعين في أساليبهم الأدبية — استغفر الله ! بل أسلوبهم الواحد الأحد السرمدي ، الذي لم يتغير ولم يتطور ! — فلماذا لا نكون نحن مبتدعين في أساليبنا الأدبية . ننهج لأنفسنا في الأدب والحياة أساليب نؤدي بها رسالة الأدب في الحياة ؟

أما السادة « المجمعيون المعجميون » ، فما أجدرهم بأن يفرض عليهم نظام « الفيتو » يعيشون في نطاقه مدى الحياة ، لئلاً يتصلوا بالناس ، فيفسدوا عليهم الحياة بما ينبشون من رمم الموتى : الرمم العفنة البوالي ، ولتبقَ لهم وحدهم لذة هذا النبش المتواصل المضني ، الذي لا يفيدهم ، ولا يفيد الأدب ، ولا يفيد الناس ، ولا يفيد الحياة في شي مطلقاً . فهم قوم يمسكون بأيديهم حبالاً من حديد ، يحاولون بكل قواهم أن يعدوا بها كل من يحاول

أن يطلق جناحيه مع الهواء الحر : هواء الحضارة العصرية ، والحياة العصرية ، التي لا تتسع أبداً لتقليب المعاجم الكبار الضخام ، في سبيل البحث عن أصل كلمة واحدة ، ومشتقاتها ومرادفاتها ، وسخافاتها ، يشدونه بها الى أعرق عصور التاريخ في القدم ، ويقولون له : من هنا استمد وحيك وإلهامك ! لا تقل أدباً ، ولا تحاول أن تأتي بفكر جديد ، أو معنىً جديد ، بل خذ ألفاظاً قديمة ، مما اعترف بصحته الزمخشري والأصمعي والكسائي ، ومما ورد في شعر الجاهليين ، والمخضرمين ، والأمويين ، والعباسيين . . . وهكذا نعيش معهم جامدين متأخرين ، الى أبد الآبدين !

ولِمَ ذلك ؟ ! انها قصة الكأس والشراب . . فكما انه لا يصح أن تتناول الشراب في كأس وسخة أو مهشَّمة ، كذلك لا يصح أن تكتب الأدب بلغة غير جميلة ! .

آمنَّا وصدَّقنا أيها السادة ! ولكن هل حقًّا أن الكأس لا تكون جميلة ، إلاَّ إذا أخرجت من قبر امرىء القيس ، أو من قبر الأصمعيّ ؟ ! ألا تصلح كأسٌ مصنوعة من « النايلون » مثلاً للشراب ، أكثر مما تصلح له كأس من الفخَّار ؟ وهل يضير الشراب أن يوضع في قدح من « النايلون » لأن الكسائي والفرّاء وسيبويه لم يعرفوا « النايلون » ؟ سيداتي وسادتي !

إن طول اعتمادنا على الكتب الصفر ، وطول عبادتنا للموتى ، قد صبغا عقولنا بمثل صفرة تلك الكتب : الصفرة المتهرِّئة ؟ وختما على آدابنا بمثل موت أصحاب تلك الكتب الصفر . وهكذا لا نزال مرضى في عقولنا ، موتى ـ أو على الأقل جامدين جمود الموتى ـ في آدابنا . فاذا عاد سيد منَّا من عاصمة بلاد الانكليز على متن « طيارة » ، استقبلناه بشعر أقدم من عصر امرىء القيس ، نستهلُّه بقولنا :

« أنِخ الركاب فقد أطلت غيابا ! . . »

أي والله ! « أنخ الركاب » لرجل يمتطي الطيارة في الجوّ . . .

وإذا تغزلنا ، لم نجد ألطف « من المهاة » نتغزَّل بعينيها ، فنقول :

« المها أهدت إليها المقلتين . . . »

وذلك لأن البدويّ الذي عاش في الصحراء ، رفيقاً لها ، قد سبقنا الى هذا الوصف فهو إذن تعبير جميل . أما أن نعرف نحن ما هي المها . أو لا نعرفها ، فليس بأمرٍ ذي قيمة !

واذا أردنا أن نرثي ، لم نجد الاَّ أساليب القدماء الشديدة المغالاة في كذبها ، وبُعدها عن الإصالة ، وعن تصوير اللوعة الصادقة ، فنقول :

« لو كان في الذكر الحكيم بقيَّة   لم تأت بعدُ رُثيت في القرآن ! »

وكذلك إذا أردنا أن نمدح، أو نهجو، أو نبكي، أو نصف، لم نجد الاّ المعاني القديمة، والأساليب القديمة، نمدح، ونهجو، ونبكي، ونصف بها . . .

جمود . . . جمود قاتل . . . ونحن مع ذلك نسير عليه، ولا نشعر، أو لا نريد أن نشعر به . . . ولِمَ ذلك ؟ . . . أليست لغتنا هي أمّ اللغات ؟

أو على الأصح هكذا دعوناها ؟ . أمُّ اللغات غداة الفخر أمهما . . . »

كما يقول حافظ ابراهيم . . ألم يُكتَب بها القرآن ؟ . . إنها إذاً لغة الله، ولغة الملائكة . . . ولغة آدم وحواء في الفردوس، فكيف لا نرضى بها اليوم ؟ !

قولوا ما شئتم، أيها الناس ! وليتمحّل من شاء لتأخره وجموده الأعذار والعلل، فقد اعتدنا دائماً — حينما نشعر بفشلنا وجمودنا — أن نحاول جذب الله — أو أقرب الأشياء الى الله في رأينا — الى صفوفنا، لنسجّل عليه الجمود، تبريراً لجمودنا ! ومن ذا الذي يجرؤ على التمرد على الله، أو على أقرب الأشياء الى الله ؟ ! إنه اذن لكافر ! كافر ! فارجموه ! . . . وهكذا نكسب تأييد الدهماء لنا، وذاك حسبنا من النصر !

أما نحن فإننا نهتف بملء أصواتنا مع الشاعر المهجري نعمة قاذان، في « معلّقة الأرز » :

إذا كان أمسي ويومي، غدي فيارب إضرب على مقلتي !

نعم، ليضرب الله على مُقلنا إن كان أمسَنا سيكون هو نفسه يومنا، وغدنا أيضاً، بغير تبديل أو تجديد، فلن نرضى أن تبقى الألفاظ والأساليب اللغوية اللفظية القديمة — التي كانت زاد أمسنا، ولا تزال عتاد يومنا — هي نفسها زاد غدنا، وعتاده، لأننا لا نرضى أن نسجل على أنفسنا مثل هذا الجمود العقيم. فالأدب عندنا ليس بالألفاظ، وإنما هو بما خلف الألفاظ من معانٍ وفِكَر :

فما الشعر بالكأس برّاقة ولكنه الشعر في الخمرة
كذا فتنة العين بالمرأة هي الشعر بالعين لا المرأة
إذا ما الحبيب تكلم غمزاً فأين الكلام من الغمزة ؟ !

كما يقول قازان ! . . وأين كذلك الألفاظ والأساليب القديمة من الأدب الحيّ، الذي يجب ان ننصرف الى إنتاجه : أدب العقل والقلب والروح، الأدب الذي هو إنجيل الحياة وقرآنها، وتوراتها، والذي يمكنه أن يخلق العالم من جديد، حين يخلق في العالم نفوساً تحب الخير والجمال، وتهدف الى سعادة الحياة، ولا تعوقه عن حب الخير والجمال والسعادة لفظة جامدة :

لئن عاق دربي الى الله لفظٌ   همزت جوادي يسيرُ الخبب (١)
وجوّزت في الصرف ما لا يجوز   وأوجبتُ في النحو ما لا يجب
إذا قام شعرٌ بألفاظه   تكون القواميس خير الكتب !

واللغة التي تقف جامدة دون كل تطوّر ، إنما هي ميتة ، لا تصلح للحياة ، ما دامت لا تستطيع مجاراة الحياة السائرة دائماً الى الأمام في تطوّرها المستمرّ الذي لا يكلُّ ولا يتوقف مادام دولاب الزمان في دوران ، والليل والنهار في تعاقب ، وما دامت الشمس تغيب كل يوم في المساء ، لتطلع على الناس في الصباح :

فلا طَلَع الفجر يوماً عليَّ   إذا لم يلدني مع الطلعة (٢)

أما القرآن فيا لفداحة خطإنا ، ويا لغباوتنا يوم نحسب أنه يقف عقبةً كؤوداً في سبيل التطوُّر الأدبي ! فلقد كُتِبَ القرآن باللغة التي كان يتكلمها الناس ويفهمونها حين نزوله . وما كان يمكن مطلقاً أن ينزل في غيرها . ولو أنه نزل في أيامنا هذه ، لما رأينا فيه لغة قريش القديمة ، بل لكُتِبَ بلغة العصر الحاضر ، التي نستطيع أن نفهمها بيسر وسهولة. فلقد كان القرآن أحرص مما نتصوّره نحن ، على مراعاة خصائص العصر ، وعلى تأدية رسالة الحياة بأحسن الأساليب الممكنة في أيامه . ونزول القرآن بألفاظه المعروفة لا يعني أن تجمد اللغة عند تلك الألفاظ الى الأبد ، فلم تكن هذه غايته ، ولن تكون ، فليس للقرآن لغةٌ ، ولكنه جوهر ، ولو كان لغة وألفاظاً فحسب ، لما استطاع أن يكون دستوراً للحياة ، صالحاً لكل جيل، فاللغة تتطوّر وتتبدّل مع الزمن — ككلّ شيء آخر — وأما الجوهر فهو الذي يكمن فيه سرّ الخلود .

ترى ماذا كنّا نكون اليوم ، وأي تاريخ كان يمكن أن يكون لنا ، لو لم يقم الإسلام والقرآن بالثورة الساحقة الماحقة على جمود الصحراء وخمولها ، على عصبيتها القبلية ومنازعاتها على أديانها وأصنامها ، وعلى تقاليدها وعاداتها ؟

ماذا كنّا نكون اليوم ، وأيّ تاريخ كان يمكن أن يكون لنا ، لو لم يَقُم الاسلام والقرآن بفتح أعين القبائل العربية ، الغارقة في جفاف الصحراء بتقاليد الهمجية العمياء ، على حاجات العصر ، وعلى طريق الله والمجد ، وعلى طريق التاريخ الداوي ؟

لقد كان الأسلام والقرآن نفسهما ثورة على الجمود والرجعية ، وتجديداً في الدين ، وفي التشريع ، وفي الحياة . فما بال الكثيرين من الجامدين الرجعيين يحاولون أن يسجلوا عليهما الجمود والرجعية وهما من الجمود والرجعية أبرأ وأنقى من ضمير يوسف من تهمة امرأة العزيز ؟!

(١ و ٢) لنعمة قازان

صدقوني ، سيداتي وسادتي ! إننا لو استطعنا أن نثور على الأدب اللفظي القديم البالي كما ثار القرآن على الحياة الجاهلية ، وأن نُبدع في الجديد الحيّ منه ما أبدع القرآن في حياة الصحراء ، حين خلق من شتيت سكانها أمة أخضعت الدنيا لسلطانها ، لاستطعنا أن ننتج في الأدب الحيّ أروعَ ما تنتجه الامم .

إذن فثورتنا اليوم على الأساليب القديمة والأدب القديم واللغة القديمة ، لا تعني الثورة على القرآن ، ولا يمكن أن تعنيها ، فليس من المعقول مطلقاً أن يطالِبَ إنسان بتغيير لغة كتابٍ ما — بله القرآن نفسه — بحجة أن الزمان قد تطوّر ، وتطوّرت معه اللغة لذلك سيبقى القرآن هو القرآن : له قدسيته ومكانته ورسالته ، وله لغته التي لن تستطيع أن تمتدّ اليها يدٌ بحذف أو تبديل . أما اللغة نفسها — اللغة التي نتفاهم بها — فقد آن الاوان لان نخرج فيها عن سنن الصحراء ، وقواعدها ، وتعابيرها ، وألفاظها ، وأساليبها ، واذا كنّا نريد أن نؤدي رسالة الأدب الى الحياة والأحياء . فالذي يجب أن نفهمه الآن هو أنّ الادب رسالة ، وقيادة ونور .

هو رسالة : لأن الأديب هو نبيّ الحياة ورسولها ، والروح الذي يفهمها حق فهمها — أو هو يجب أن يفهمها حقّ فهمها — ويعرف كيف يمهّدها ويفرش طرقها بالورود أمام أبنائها الأحياء ، ليعرفوا فيها الجمال والخير وسعادة القلب والروح .

وهو قيادة : لأن الأديب — ابن الحياة البارّ ، ورسولها الأكبر — هو الذي يعرف كيف يسير بأبنائها في طرقها العديدة الملتوية الوعرة ، ليصل بهم الى الجمال والخير ، وسعادة القلب والروح .

وهو نور : لأن الأديب هو المشعل الذي يستطيع أن ينير سُبُل الحياة أمام السالكين لكي يهتدوا فيها الى الجمال والخير ، وسعادة القلب والروح .

فالجمال والخير والسعادة ، إذاً هي غاية الحياة ، ولكنها جميعاً كامنة في مكان واحد ... مكان صغير جدًّا ! أتعرفون ما هو ؟!

إنه قلم الأديب ! ففيه وحده — في رأسه الصغير الدقيق — يكمن الجمال ، ويكمن الخير وتكمن سعادة الحياة . ومنه يفيض النور الذي يقشع الظلام عن وجه الحياة ، ومنه يتسلسل الخير ، ويتسلسل الجمال ، وتتسلسل السعادة ، إذا عرف كيف ينفث نور رسالته المقدسة على وجهٍ صحيح .

هكذا نفهم الأدب ، أو هكذا يجب أن نفهمه اليوم . أمّا اللغة التي لا يزال الاكثرون يحسبونها الشرط الاساسي للجودة والقوة في الأدب ، فإننا نرى أن بينها وبين الادب فرقاً

بعيداً جداً ، فالأدب هو رسالة الحياة : الحياة الشاملة المتطورة، أما اللغة : فالألفاظ الجوامد، فإنما هي مجرد وسيلة تنقل هـذه الرسالة . وكل رسالة هي في حاجة الى « ناقلة » مناسبة للوصول الى كل فهم ، والى كل ذوق ، يغلب عليهـا البساطة واللطف والجمال ، لا الثقل والبلادة والتعقيد ، ولو كانت « الاشارة »— نعم الاشارة — كافية لتأدية هذه الرسالة، لكانت هذه الاشارة أدباً في الصميم . ولو كان يمكن تسجيل الفكرة الأدبية ، أو المعنى الأدبي، أو لو كان يمكن تسجيل العواصف والآمال والآلام على الورق بالاشارة ، لكان من الواجب تسجيلها بهذه الاشارة، إن كان لا يمكن إخضاع اللغة للادب ، وإعطاؤها خصائص العصر الذي نعيش فيه ، لتتمكن من التعبير عن حاجاته ، ومن تصويره بصدق !

إن اللغة ، التي هي « ناقلة » رسالة الحياة يجب أن تكون من البساطة والسهولة والجمال بحيث تصلح لهذه الرسالة المقدسة . ألسنا نرى أن الاواني القديمة التي كان يستخدمها الاقدمون في حاجات عصورهم ، لم تعد تصلح لان نستعملها نحن اليوم ، حتى لنفس الأغراض التي كانت تستخدم فيها ؟ وإنما كل ما تصلح له اليوم هو أن توضع على رفوف المتاحف ليتفرج عليها من يشاء من عشاق القديم والتحف الأثرية — ليتفرج عليها فقط ، لا ليستعملها مع أن بعضها كان يمكن استعماله لو أردنا . فاذا كنا نفعل ذلك بالآنية التي تستخدم لقضاء حاجات الجسد الفاني ، فكم يجدر بنا إذاً أن نفعل مثل ذلك تماماً بالآنية التي نستخدمها لقضاء حاجات العقل والروح الخالدين ؟

أما كان الأجدر بنا ان تبقى ألفاظنا القديمة ، وأساليبنا القديمة ، ولغتنا القديمة وكثير من أدبنا القديم ، كأشياء أثرية ، لها جلال القدم وروعته ، ولكنها لا تصلح للاستعمال في العصر الحديث ؟ لأن لكل عصر خصائص يتميز بها ، والعصر الذي لا يظهر أثره في آداب أهله ، هل نتوسم فيه شيئاً من دلائل الحياة ، أو نتوسم في أهله ؟

لقد تخلينا عن ملابس أجدادنا الثقيلة القديمة الخشنة : ملابس الصحراء الجافة الصارمة وارتدينا ملابس العصر الحديث ، ولم نعد نرضى عنها بديلا . وكذلك لا بد لآدابنا من أن تخلع ما لا يلائمها من اللباس الصحراوي القديم ، الذي حشرتها فيه الصحراء الجافة الصارمة قروناً طوالاً ، لينطلق في موكب الحياة حراً طليقاً يؤدي رسالة الحياة على أكمل وجه فلا نظل — برغم ما يبهر أعيننا من أضواء الحياة الساطعة ، ويرن في آذاننا من أصواتها الصادحة — أقصى عدتنا أن نلتفت ، في انتاجنا الأدبي ، الى الخلف : الى الأدب اللفظي الذي تهرأ وعفن لكثرة ما تراكم عليه من أنقاض القرون وغبارها ، لكي نغترف منه « أوبئة » جديدة نغرسها في جسم أدبنا الحاضر ، ولا نخجل من أن ندعو هذه الأوبئة

« أدباً » ، أو علاجات لجسم الأدب ، أما الحياة التي نعيش فيها ، فلا نعرف كيف نغترف منها ، واما حاجات العصر ، فلا نعرف كيف نعبر عنها ، وأما عواطفنا وأفكارنا وخلجات نفوسنا ، فلا نعرف كيف نشرحها ونغنيها ، وأما ان الادب هو رسالة وقيادة ونور ، فلا نفهمه ، ولا نريد أن نفهمه .

ولئن كنت أقول هذا ، فلست أريد أن تفهموا من قولي أنني أطالب بحرق كل ما لدينا من القديم، وأن يكن أكثره أدب لغةٍ وألفاظ ، لا أدب معانٍ وأفكار ، فمعاذ الله أن أفعل ذلك ، ولو علمتُ أن إنساناً يطالب بمثل هذا ، لرأيت في عمله كثيراً من التهوّر مغالاةً صارخة لا مبرّر لها . انما أنا أدعو الى الاحتفاظ بهذا القديم كله — من ألفه إلى يائه ، بغثّه وسمينه ، عفيفه وداعره ، ضعيفه وقويه ، جيده ورديئه — في متاحف ، أو دور كتب خاصة تقوم مقام المتاحف الأثرية ، ليتمكن من الرجوع إليه بسهولة كلّ من يريد التخصص ، أو زيادة الاطلاع ، على أن يُنتَخب شيء من الصالح منه ، ليوضع بين أيدي طلاب الجامعات — طلاّب الجامعات فقط — كنماذجَ من آداب القرون الخوالي ، لمجرد الاطلاع فقط ، أو للترف الدراسي على الأصح ، لا لاحتذائه وحسبانه المثل الأعلى في الانتاج الأدبي . فالذي أعتقده إعتقاداً يقيناً مخلصاً ، أنه كما أن الخيل والجمال والحمير — التي كانت كل وسائل المواصلات البرية في عصور ذلك الأدب القديم — قد تخلفت كل التخلف عن قافلة العصر الحديث ومواصلاته ، بحيث لم يعد لها مكان الى جانب القطار والسيارة والطيارة — وربما أصبح الصاروخ أيضاً من وسائل المواصلات بعد حين — ، كذلك تخلّف أدب الصحراء القديم العقيم ، وأساليبُه التي لا تزال حية الى اليوم على أقلام أدبائنا وشعرائنا — أو مَن اصطلحنا على تسميتهم أدباء وشعراء — بحيث لم يعد يصلح لعصر الحضارة الذي نعيش فيه : عصر الرادار ، والتلفزيون ، والقنبلة الذرية ، وعصر الكثير المدهش من الاختراعات التي تحير الذهن ، وتشده العقل .

* * *

لست أريد أن أقطع الصلة بين ماضي أدبنا وحاضره ، فالذي لا ماضي له ، لا حاضر يُرجى له . غير أنني لا أريد أن نظلّ عائشين في حدود الماضي البائد ، والقديم الذميم : نشرب من مياه الترع الآسنة ، والناس من حولنا لا يشربون إلاّ الماء المقطر ، ونأكل بأيدينا من قصاع خزفية أو خشبية ، والناس لا يأكلون بغير الشوكة والسكين ، وفي غير آنية من الصيني المزخرف الجميل ، أو من الفضة المجلوّة الزاهية .

نريد أن نجعل من الماضي جسراً نعبر عليه الى الحاضر والى المستقبل ، وأن نستخلص منه العبرة التي تفيدنا ، ونبني عليها أشياء جديدة : أدباً جديداً ، وعلماً جديداً ، وحياةً جديدة .

***

أيها الأدباء والشعراء !

من كان منكم يستهويه بريق الألفاظ ، وتأسره تزاويق الجناس والتورية والاستعارة ، ويهمّه إن يقول عنه الناس : إن في رأسه قاموساً ، أو أن تصفّق له أكف الجماهير في الحفلات العامّة حتى لتكاد تدمى من التصفيق ، ويقنع من الأدب والشعر بهذا وحده ، فليبقَ حيث هو ، وله ما يريد ، وهنيئاً له ما يريد ! فكم من صخرة ناشزة تقوم على ذراع الطريق السالكة ، أو على خدّ الحقل الجميل ! وكم من شجرة عقيم ، تتربع في حضن الرياض ، وترشف فروعها من رضاب الغدير ، فلا هي تستفيد ريّا ، ولا هي تستطيع أن تزهر في الروض ، أو تقدّم لطيور السماء مقيلاً ولا ثمراً .

وأما من كان منكم ، أيها الشعراء والأدباء ! يُهمّه أن يؤدي رسالة الأدب الى الحياة والأحياء ، معبراً في أدبه عن حاجات عصره ، وخلجات نفسه ، باسطاً جناحيه كالنسر للانطلاق من قيود اللفظ وعبودية القديم ؟

مَن كان يُهمّه أن يقول كلمته ويمشي ، بأسلوبه الخاصّ ، لا بأساليبِ سواه ، وبغير التفات الى الوراء !

من شاء أن يصدح مع الشحارير ، ويعبق مع الأزاهير ، ويصفق مع الجداول ، ويترنم مع هينمات النسيم !

مَن كان همّه أن يؤدي رسالة الأدب إلى الحياة : الأدب الذي هو صوت السماء في أذن الأرض ، وترنيمة الفردوس في مسمع الزمن الحائر ، وهدهدة الأزل لضمير الحياة !

مَن كان هذا همّه ، فإليه أوجه النداء الذي جعلته عنوان هذه الكلمة .

« إحمل قلمك واتبعني ! »

عيسى ابراهيم الناعوري

القدس الشريف كلية تراسانتا — القدس

الحضارة

واختلاف الطبائع

ما هي الحضارة ؟ لقد اختلف الكتّاب في تعريفها . فإذا قيل العمران وجدنا أن العمران قد يكون موجوداً من غير ذوق وتمييز ، والحضارة لا تكون إلاّ بهما . وإذا قيل العلم وجدنا أن العلم قد يكون تحصيلاً من غير تفكير ومن غير فهم كثير . وإذا قيل حسن الأخلاق وجدنا أن حسن الأخلاق قد يكون موجوداً في الأمم التي على الفطرة والتي لا تعرف الحضارة . وإذا قيل الذكاء والفهم والحكمة وجدنا هذه الصفات عند بعض قبائل البدو الذين لا يمتون إلى الحضارة بسبب . وإذا قيل إن الحضارة في الثراء والبذخ وجدنا الثراء مدخراً ومكنوزاً عند من لا يعرف الحضارة . وإذا قيل إن الحضارة في انتهاز فرص اللذات والمسرات وجدنا أن الهمج من الناس قد ينهمكون في اللذات كما تفعل أصناف كثيرة من الناس . ومن أجل ذلك كان تعريف الحضارة من أصعب الأمور . ولو أن اسمها يجري في أفواه الناس كل يوم . فالترف وحده لا يتمم الحضارة ويكوّنها ، ولا العلم وحده ولا الذكاء والفهم وحدهما ولا طيب الخلق وحده ، ولا انتهاز فرص المسرات ولا الابتكار في الفنون فالشعر والنحت والتصوير فنون كانت راقية قبل الحضارة .

* * *

لقد خلف لنا ثيوكيديدس المؤرخ الأثيني في كتابه المسمى حرب البلوبونيز خطبة بركليز السياسي الأثيني وهو يؤبن قتلى حرب البلوبونيز . وفي هذه الخطبة يصف بركليز صفات العظمة في الحضارة الأثينية ، أو الصفات التي يرى أنها جديرة أن تكون مقياساً للحضاره وانها أحق بالرعاية والتنمية . وقد اقتبس كثير من المؤرخين جملاً من تلك الخطبة التي يعدها المؤرخون من أعظم الخطب سواء أكان بركليز واضعها بالنص ، أم صاغ ثيوكيديدس في كلامه ما علق بذهنه منها . ففيها نرى التسامح بين أبناء الأمة الواحدة والعدل في صيانة الحقوق ، والثقافة المؤسسة على الفهم والعمران المبني على الذوق والتمييز . والاستعداد للدفاع عن الدولة من غير خشونة أو مغالاة تقضي على الجوانب الأخرى من الحياة ، ونرى الحرية

اللازمة لاختلاف الطبائع والأمزجة ، تلك الحرية التي تمنع من صب الناس في قالب واحد وقسرهم على رأي واحد ومسلك واحد ونظرية واحدة ونظر واحد الى الحياة . وقد نظر الكتّاب في الحضارات المختلفة فوجدوا ان الحضارة تكون أعظم ازدهاراً وابتكاراً وأطول عمراً وأكثر تجدداً إذا كان فيها نصيب موفور من تلك الحرية اللازمة لاختلاف الطبائع والأمزجة ، وتكون أقصر عمراً وأقل ثمرة وازدهاراً اذا فقدت تلك الحرية ، وحاولت الدولة صب الناس في قالب واحد وقهرهم على أن تكون طبائعهم وأمزجتهم متشابهة .

وقد غالى بعض الكتّاب فذكر ان حرية الطبائع والأمزجه خصيصاً اختصت بها الحضارة الأوربية دون غيرها من الحضارات ولا سيما الحضارات الشرقية . ومن أجل ذلك بادت الحضارات الشرقية ولم تبد الحضارة الأوربية . وقد نسوا ان بعض الحضارات الشرقية كانت أطول عمراً . وان الحضارة الأوربية القديمة التي وصفها بركليز في خطبته التي أشرنا اليها بادت كما باد غيرها ، وان الحضارة الأوربية الحديثة قريبة العهد لا يصح الحكم فيها وفي أجلها .

* * *

قال فرنسوا جيزو المؤرخ والسياسي الفرنسي ووزير الملك فيليب لويس جيزو هو واضع كتاب تاريخ الحضارة الأوربية . ان الحضارات الشرقية كانت مؤسسة على مبدأ واحد أو نظرية واحدة أي كل حضارة على نظرية ، وان اختلفت مبادىء الحضارات

والقارىء يرى في كلامه بعض ما يشعر إنها كلها على نظام واحد ونظرية واحدة ويقول ان الحضارة الأوربية مؤسسة على اختلاف المبادىء وتباين الأسس ، وتفاوت ، النزعات مما يؤدي الى يقظة العقول والنفوس ، والى الإبتكار والتوليد والابتداع . وقال جون ستوارت ميل المفكر والفيلسوف الانجليزي في كتابه المسمى كتاب الحرية . إن الحرية التي تسمح باختلاف الأفكار وحدها لا تكفي لتقويم الحضارة بل لا بدّ من الحرية التي تسمح باختلاف الطبائع والأمزجة والنزعات النفسية وذكر أن تعاظم الحضارة الأوروبية إنما كان بسبب تلك الحرية التي تشجع الطبائع المختلفة . وان ركود الحضارات الشرقية كان بسبب فقدان تلك الحرية ومحاولة قهر الناس على طبع ومزاج واحد . فركدت النفوس والعقول وانقطع عهد الابتكار والابتداع وركدت الحياة عامة .

وعندي أن هذه الآراء قراءة للحقائق عكساً لا طرداً كمن يقرأ الكتاب من آخره كي يصل الى أوله وذلك للأسباب الآتية : —

(أولاً) إن الحرية اللازمة لاختلاف الطبائع والأمزجة ليست دائماً سبباً للقوى الحيوية في الحضارة، بل قد تكون نتيجتها . فالقوى الحيوية في الطبائع والأمزجة قد تسبب الحرية وتضمنها وتجعلها قضاءً محتوماً بالرغم من قهر وكبت، وبالرغم من محاولة صب الناس في قالب واحد . وأن استبداد العادة الذي يحكي عنه جون ستوارت ميل في كتاب الحرية قد يكون نتيجة لضعف الطبائع والأمزجة مهما اختلفت . وأن الحكومات الاستبدادية وجدت في أوروبا كما وجدت في الشرق . وقد اعترف جون ستوارت ميل في كتابه إن الحرية اللازمة لاختلاف الطبائع والأمزجة ظهرت في أوروبا بسبب القوى الحيوية في النفوس حتى في عصور الرغم والقهر .

(ثانياً) إن شرط الحرية اللازمة لاختلاف الطبائع والأمزجة ليس خاصًّا بالحضارة الأوروبية، فلو درس هؤلاء الكتّاب الأفاضل الحضارات الشرقية أو العالمية في أبانها وجدوا أن حرية الطبائع والأمزجة موفورة حتى في عصور الاستبداد والقهر . فقد كانت موفورة في حضارة الأندلس العربية كما كانت موفورة في الحضارة العباسية في أشد عصور خلفاء العباسيين بأساً وقوة . ويكفي أن نقرأ كتب الأدب والعلوم العربية لنعرف الى أي حدٍّ بلغت حرية الطبائع والأمزجة . نقرأ عن باحث خصص حياته لدراسة النمل وعاداته، وانه كان اذا تكلم في النمل قضى ساعات طوال لا يَملّ ولا يُملّ سامعه . ونقرأ بجانب ذلك وصف الولائم التي كانت تبلغ غاية المجون فأي اختلاف في الطبائع والأمزجة أكثر من هذا الاختلاف .

(ثالثاً) إن عصر حرية الطبائع والأمزجة اللازمة لازدهار الحضارة . لابد من أن يسبقه عصر توحيد للقوى وهذا العصر السابق هو عصر قيام الدول ونشأتها ، وتأسيس بأسها وسطوتها ولولا هذا العصر الذي هو عصر الجماعة ويسود فيه مذهب الجماعة لا مذهب الفردية ما أمكن أن يكون بعده عصر الحرية الفردية، لأن العصر السابق عصر توحيد الجهود النفسية والفكرية، وعصر الغلبة الذي يجلب للأمة الاطمئنان إلى عصر الحرية الفردية اللاحق به . والحرية الفردية هي حرية اختلاف الطبائع والأمزجة .

(رابعاً) إن تلك الحرية الفردية كثيراً ما يعقبها عصر اضمحلال إذا بلغت الحرية الفردية غايتها وضعفت الطبائع والأمزجة وعندئذٍ لا يغني اختلاف الطبائع والأمزجة عن ضعفها، ولا يثمر ولا تزدهر الحضارة معه. وقد ينجي من ذلك الاضمحلال خطر خارجي داهم يضطر الشعب الى توحيد الجهود النفسية والفكرية اذا استطاع ولم تكن الطبائع والأمزجة قد ضعفت ضعفاً لا أمل معه . أما إذا كانت الطبائع قد ضعفت واضمحلت وصارت نزعاتها

سطحية فلا أمل في توحيد الجهود النفسية والفكرية بالرغم من كل محاولة وبالرغم من كل خطر خارجي داهم .

(خامساً) إن تعاقب عهود اندماج الفرد في الجماعة، وإطلاق الحرية للفرد الى أقصى حد مستطاع وغير مضر تعاقب يصلح الشعوب الانسانية ، وهو أمرٌ مشاهد في التاريخ لأن اندماج الفرد في الجماعة كما أنه يوحد الجهود النفسية والفكرية، ويمنع زيغ طبع الفرد ومزاجه كذلك قد يضعف طبع الفرد، وإذا ضعفت طباع الأفراد ضعف طبع الجماعة . وإطلاق الحرية لطبع الفرد ومزاجه كما إنه يؤدي الى تقوية طبع الفرد ، والى استيعاب جميع مظاهر الحياة وإلى تشعب مسالك الفكر والمطلب الذي يؤدي الى ازدهار الحضارة، فإنه كذلك قد يؤدي إلى زيغ وضلال وشطط في الطبائع الفردية ، وقد يستهلك قواها . ومن أجل ذلك يتعاقب العهدان لما فيه خير الشعوب ، وقد يتعاقبان لما فيه ضرها ، إذا أتى مثلاً بعد عهد فوضى الطبائع الفردية عهد قهر مرهق من عهود اندماج الفرد في الجماعة فيقضي على البقية الباقية من قواها، فيكون الفساد حيث يراد الاصلاح بالقوة .

(سادساً) ينسى الكتَّاب الأفاضل عند تعليل ركود الحضارات الشرقية في عهد ازدهار الحضارة الاوربية أمور هامة منها : ان الحضارات الشرقية تسلمتها قبائل وشعوب لها طباع فاضلة ولكنها أقل استعداداً لتنمية الحضارة واعلائها من القبائل والشعوب التي تسلمت الحضارات الأوربية القديمة . وليس المراد الحكم على شعب أو قبيلة حكماً أبديًّا ، وإنما هو حكم الماضي من التاريخ . فالقبائل التيوتونية التي تسلمت الحضارة الأوربية القديمة كان عندها استعداد في ماضي تاريخها لتنمية الحضارة اكثر من استعداد قبائل التتر والمغول والأتراك التي تسلمت الحضارة الشرقية . ولا سيما أن الطبائع الفردية في الشرق انتابها عهد بعد عهد أضعف قوتها على اختلاف مصادر هذا الضعف وأسبابه .

ولا ننكر ان نظم الحياة والحكم التي نمت في أوربا قديماً وحديثاً والتي ورثها الشرق الآن بوراثته نظم الحكومات النيابية المنظمة، ربما كانت أدعى الى صيانة حرية الطبائع والأمزجة . التي يقول المفكرون إنها من أهم مقوّمات الحضارة . بل هي الصفة اللاصقة بالحضارة، والتي لا تكون إلاَّ بها في نظرهم . وهذه النظم النيابية هي أيضاً نتيجة أكثر منها سبباً، أي إنها نتيجة القوى الحيوية في الطبائع والأمزجة والنفوس . على أن هذه النظم في غير البيئة الصالحة لها ، قد تؤدي الى استبداد فئة قليلة من الأسر البيوروقراطية وأعوانها .

العلامة اللغوي

الاب أنستاس ماري الكرملي

بعث الي بهذه المقالة صديقي الكاتب الاستاذ محمد فاتح توفيق المدرس بتطبيقات دار المعلمين ببغداد ، ومعها صورة للغوي الكبير الاب أنستاس بعد موته بساعات ، وطلب الي أن أقدمها الى احدى مجلاتنا المصرية ، فآثرت بها مجلة « المقتطف » لانها شيخة المجلات العربية ، ولانها كانت مسرحاً لابحاث فقيد اللغة الكرملي ...

ولقد كان بيني وبين الاب البحاثة صداقة ومراسلات منذ سنوات ، وسأعود الى الحديث عنه فيما يأتي من أعداد المقتطف ، وفيما يلي نص المقالة : أحمد الشرباصي

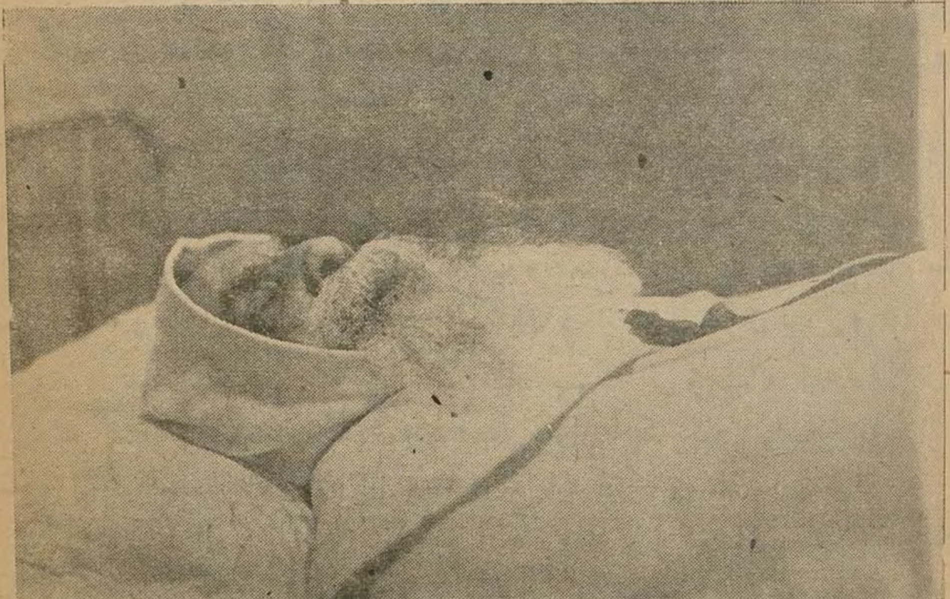

الآب أنستاس ماري الكرملي مسجًّى

وعلى حين غفلة طوت يد الأقدار ابن العربية البار ، والعلامة اللغوي الآب أنستاس ماري الكرملي . وما هي الاَّ عشية أو ضحاها حتى أصبح أثراً بعد عين ، وميتاً يرثى بعد أن

كان حيًّا يرجى ، فجف ذلك البحر الزاخر ونضبت تلك العين الدفاقة بفيض العلم والعرفان واندك ذلك الطود الأشم وسكت هزيم رعده وصوته الجهوري وانطوت تلك الصحراء الواسعة من الحلم والكمال وسقطت تلك الثمار الدانية من التواضع والجلال وسكنت الريح الصرصر العاتية في الخصومات والنقد ، ولم يهب ذاك النسيم العليل من اللين والحنان . فخسرت العربية أيما خسران .

حقًّا إن القول ليقصر عن ادراك مدى هذا الرجل العظيم بعلمه وعمله . وان المرء ليقف عاجزاً عن اداء حق علاَّمتنا المفضال الذي خدم العربية والعلم أكثر من ستين عاماً كان خلالها مثالاً للرجل الكامل العامل المخلص المثابر الذي تزوَّد بالعلم الصحيح والخلق الرضي والأدب الجم، فكان سبَّاقاً لا يبلغ شأوه أحد ولا يصل الى مقامه مجدٌّ .

***

ولد رحمه الله في بغداد سنة ١٨٦٦ في اليوم الخامس من آب (أغسطس) . وتوفي في بغداد أيضاً في المستشفى الملكي صباح يوم الثلاثاء في اليوم السابع من شهر كانون الثاني (يناير) سنة ١٩٤٧ فيكون عمره ثمانين سنة وخمسة أشهر ويومين .

وتعلم من اللغات أكثر من عشر ، فقد أتقن الفرنسية واللاتينية واليونانية والعبرية ، والصابئية ، والكلدانية ، والتركية ، والفارسية ، والانكليزية ، والسريانية ، وقليل من الإيطالية وكان يفهم البرتغالية . وقد تعلم الحبشية والاسبانية ثم نسيهما ولم تسنح له الفرصة لتعلم الألمانية وغيرها ، ذلك لأنه استدعته الكنيسة في بغداد حيث كان يدرس في فرنسة .

وقد حوت خزانة كتبه ستة عشر ألف كتاب منها ألف وخمسمائة كتاب مخطوط . وكان كثير العناية بكتبه يغلفها بقماش متين أبيض ، وإن أكبر نكبة أصابته سرقة خزانته هذه في الحرب العظمى الأولى أيام كان أسيراً في الأناضول — وهناك تعلم اللغة التركية — وعند عودته اضطر الى شراء كثير منها بأغلى الأثمان واشترى أكثرها من سارقيها بوساطة آخرين ، وان لكل كتاب لديه قصة طريفة ، فهو يحدثك عن شرائه وعن تعرفه ببائعه ومساومته له حتى يصل الكتاب الى خزانته :

وقد جاب الآفاق والاقطار لجمع هذه الكتب وللبحث والتنقيب والدرس ، وزار معظم الممالك في القارات الثلاث : آسية وأوربة وأفريقية، ولم يتسنَّ له زيارة أميركة ، وأسترالية، وعند ما يحدثك عن كتاب مفقود فكأنه يحدثك عن أعز ولد له قد فقد . وفي الحقيقة،

لا أحسب أنه كان يحزن لفقد ولد — لو كان ذا ولد — مثل حزنه على كتاب مفقود من كتبه النادرة .

وأعظم مؤلفاته معجمه الكبير « المساعد » الذي اشتغل به زهاء ست وستين عاماً ، أي منذ الخامسة عشرة من سنه ، وعند ما سئل : وهل انتهى هذا القاموس ؟ أجاب : « وهل تنتهي اللغة العربية ؟ أنا الذي انتهيت » .

ولقد قضى سنواته الأخيرة يعاني الأوصاب والأوجاع ، ويحتمل الآلام في ظروف قاسية بين أناس لا يرحمون، ولم يجد من يخدمه أو يُعنى به ، إلاّ أهل بيت له صلة قرابة بهم أسكنوه معهم — بعد أن هدم الدير الذي يسكن فيه — فأحسنوا خدمته ورعايته ، وذلك قبل سفره الأخير الى فلسطين .

ولقد أقيمت له حفلات الترحيب في فلسطين في زيارته الأخيرة لها ، وكان يذكرها بالشكر والتقدير للقائمين بها . ولقد عولج هناك وشفي. ولما عاد إلى بغداد أحاطت به نفس الظروف القاسية واحتواه أناس يحقدون عليه ويكرهونه ، إذ هم غرباء عن هذا البلد ، وما له معزٍّ منهم، فجرى بينه وبينهم ما أثار أعصابه فنكس وعاوده المرض أشد من قبل . فقررت الحكومة العراقية نقله إلى المستشفى الملكي ومعالجته على حسابها . وبقي هناك حتى وافاه الأجل المحتوم بانفجار في الدماغ .

زرته في المستشفى أسأله عن صحته وحاله مع بعض الاخوان . فقال « إنك تراني كيف أصبحت وبأني أشكو من شلل في كفي اليمنى ورجلي اليمنى وإني لأحسبهما كخرقة لا أحس بهما ولا أستطيع تحريكهما ولا أقوى على السير على رجلي اليمنى أو الكتابة والمسك باليد اليمنى . ومع ذلك فاني لا زلت أردد مخاطباً إلهي العظيم ، كلما زدتني ألماً زدتك حبًّا . فقلت له خيراً ودعوت له بالشفاء .

وكان يسير في طريق الشفاء فقد زرناه مساء الاثنين السادس من كانون الثاني (يناير) أي قبل موته بساعات فكان صحيحاً معافىً ، قوي النبرات لطيف الكلام — كعادته — مرحاً يلقي النكتة إثر الأخرى ويقول الدعابة ويتبعها بغيرها . وهكذا قضينا الوقت ونحن نحسب أنه سيغادر المستشفى بعد أيام قلائل . فكان لنعيه وقع شديد في نفوسنا . وكان موته مفاجأة لنا أذهلتنا وأطارت رشدنا .

وإذا ذكر الاب أنستاس الكرملي فلا بد وأن يذكر معه « مجلس الجمعة » وما مجلس الجمعة هذا ؟

كان من عادة الأب الراحل ان يعقد اجتماعاً صباح كل جمعة من الساعة التاسعة حتى الثانية عشرة يقبل فيه زائريه ، واتخذ إحدى غرف الدير لهذا المجلس وفيما عدا هذا يتفرغ للبحث والعمل ولا يقبل زائراً إلاّ إذا كان معه على وعدٍ سابق وفي وقت معين .

* * *

وكان يختلف الى مجلسه جماعة من المشتغلين بالعلم والأدب ومن مريديه ومحبيه وعارفي فضله فيدور البحث في مواضع شتى من لغة وأدب وعلم وتاريخ وفن — ما عدا السياسة والدين — وفي كل ذلك للاب رأي فيه ونصيب وافر منه . وكثيراً ما كان يحتدم الجدال بين حضرة الأب والأستاذ عباس العزاوي فيثور العزاوي ويقابل الأب هذه الثورة برحابة صدر وطول بال . فما هي إلاّ لحظات حتى يعود الصفاء وتحل الابتسامة محل التجهم وكأن لم يكن شيء ، وما كان الأستاذ العزاوي يثور هذه الثورات العصبية وتبلغ الحدّة به أحياناً مبلغاً كبيراً في حضرة الأب ومجلسه ، لولا الصداقة المتينة التي تربطه به والتقارب النسبي في السن ، أمّا غيره فيلجأ الى الهدوء والأدب والاحترام في مناقشاته مع الأب ويجادل بلطف ، فإما أن ينتصر أو أن ينزل عن رأيه . وفي معظم الأحيان يكون للأب القول الفصل والحكم القاطع .

ومن أظرف ما كان يحدث في هذا المجلس ، المنافسة التي كانت تحدث بين المرحوم الأب والأستاذ العزاوي في الكتب ، فللأخير أيضاً خزانة كتب عامرة ، فهذا يقول عندي الكتاب الفلاني وهو ينقصك وذاك يجيب بأنه خير لديّ منه مما لا تملكه ، وهكذا . ولقد يسأل بعضهم بعضاً عن الجديد في خزانة كتبه أو ما جدّ في عالم التأليف .

ويتلو على مسامع الاب كل ما سطر من مقال أو دبج من موضوع أو نظم من شعر في مختلف المواضيع ، ولا يفوته خطأ إلاّ نبه عليه . وتعرض عليه أسئلة مختلفة فيجيب عنها جواباً شافياً صريحاً لا لبس فيه ولا ابهام مع الدليل والبرهان والحجة .

ولقد كان الجميع موضع اهتمام الاب وعنايته فيسأل عن كل واحد منهم سؤال الأب الحنون والأخ الكبير ، ويعتب على من يغيب عن مجلسه وربما أغلظ في العتاب إن لم يكن الغياب عن عذر مشروع أو مانع معقول .

ولا يقدم في مجلسه شيئاً مما يقدم في المجالس الاخرى كالقهوة أو الشاي والسيكارة أو ما شاكلها . ولقد قال مرة لمعالي الدكتور ابراهيم عاكف الآلوسي — في إحدى زياراته له —

وكان إذ ذاك وزيراً للمعارف : « يا صاحب المعالي ، الرَّبْع(١) هنا يعرفون أنه ليس في مجلسي شاي ولا قهوة حتى ولا سيكارة لخالك حالهم » . فضحك معاليه وقال هذا مجلس علم وأدب ويكفينا ذلك .

وقال لمعاليه أيضاً : إن أكثر الحاضرين في هذا المجلس من رجال المعارف من معلمين وطلاب فهم أتباعك . فسرَّ معاليه وقال : أنا أيضاً طالب علم في مجلسك .

ولقد تخون الذاكرة ، فيطول البحث في موضوع أو عن كلمة فلا يهتدي الى موضعها أو مظنتها ، ثم يقبل الدكتور مصطفى جواد ، وهو من أصفيائه وملازميه فيحل المشكلة بأن يذكر لهم المصدر أو التاريخ حسب المطلوب والحاجة ، وذلك بما وهب من ذاكرة قوية وحافظة عجيبة .

ولئن تماديت في ذكر أفراد مجلسه يطول بي الكلام ويطول . ولكن إن أنسَ فلا أنسى ذلك الفتى الألمعي الذي كان زينة المجلس الأستاذ علي غالب العزاوي المحامي شقيق الأستاذ عباس العزاوي . وقد كفّ بصره عند الكبر . فقد كان حلو الحديث والشمائل ، حاضر البديهة ، سريع النكتة ، مرحاً لطيف المعشر ، ذا أخبار وأحاديث طلية ومسرّة . وقد اغتالته يد أثيمة فمات شهيداً .

وكانت طريقته في البحث والدرس علمية صحيحة لا يلقي الكلام على عواهنه ولا يقول القول جزافاً ولا يؤمن إلاّ بما يثبت بالدليل والنص والتجربة .

وكان يحب من يحافظ على مواعيده ويتمسك بها في الوقت المحدد فإن اتفقت وإياه على موعد وجب عليك أن لا تخالفه وإلاّ تعرضت لنقمته ونقده .

ومن عاداته أنه لا يهمل أي رسالة ترد إليه فيرد عليها في الحال بنفسه أو يكلف غيره إن أقعده عن ذلك مرض .

وكانت الروائح القوية تزعجه وتثيره وخاصّة رائحة الخمرة فلا يقوى على شمها .

واحتفظ الى حين وفاته بقواه العقلية كاملة وبحدة بصره وقوة سمعه وبنبرات صوته القوي الجهُوري ، وببدانته وقوة بنيته ، على الرغم من اصطلاح العلل عليه وخاصّة في السنوات الأخيرة من حياته ، وعلى الرغم من قضائه الوقت بالدراسة والمطالعة والبحث .

ولقد كان دائب المطالعة والمراجعة حتى إنه ليقرأ الكتاب الواحد من المراجع المهمة

---

(١) الربع : بمعنى الاصحاب .

عدة مرات ، فترى مثلاً وقد كتب في نهاية كل جزء من أجزاء « تاج العروس » انتهيت من قراءته للمرة الثالثة أو الرابعة (أو أكثر) بتاريخ كذا . وهكذا الشأن في معظم كتبه وهل تحسب أنه يقرأ هذه الكتب قراءة عابرة ؟ — لا . إنه ليدقق ويحقق ويعلق ويضع الخطوط الزرق تحت ما هو مغلوط فيه والخطوط الحمر تحت ما هو صحيح أو موافق رأيه .

وكان شديداً على خصومه عنيداً معهم — وما خصومه — إلا أعداء العربية والذين ليس لهم منها نصيب وهم مع ذلك أدعياء فيها ، فيهزأ بهم ويتهكم وينعتهم بمختلف النعوت التي لا ترضيهم ، فإن كثرت أخطاء أحدهم مثلاً ، نسب كتابته أو قوله الى اللغة الشنقناقية لغة — فريق من الجن — أو لغة واق الواق وهكذا مما لا تعيه الذاكرة .

ومع ذلك كنت تراه يشجع الناشئين ويأخذ بأيديهم ويبث فيهم روح الأمل ويبعث في نفوسهم الهمة ويثني عليهم ويرفع من قيمتهم وشأنهم وإن لم يكونوا أهلاً لذلك .

* * *

وبعد فالحديث عن الآب أنستاس الكرملي كالحديث عن البحر أو الغيث الذي ينهمر ، طويل لا ينتهي ، وواسع لا يُحَد ، فقد كان أمة وحده وشخصية عجيبة غريبة يجب أن تؤلف عنه الكتب وتدرس سيرته . وكم كنت أود أن يزوره في حياته كل متكبر مغرور جبار ، ليأخذ منه دروساً في التواضع وكمال الخلق واللطف والأدب الجم وكرم الأخلاق .

وإن فقده لا يعوَّض ، فقد ترك حبيبته اللغة العربية تلطم خدَّها وتشق جيبها على من رعاها عشرات السنين وأنزلها من نفسه أسمى منزلة وأكرم مقام . وهي اليوم مفجوعة لا تجد له بديلاً ولا ترضى عنه عوضاً .

وإن بموته تفرّق ذلك الجمع النظيم من طلاّب العلم والأدب ، ومن روّاد مجلسه ومرتشفي فيض علمه ومعرفته ، وفقد ملجأه الروحي الذي إليه يسكن .

أيها الآب الراحل الكريم ، إن فضلك علينا عظيم ، ونفعك عميم ، وهيهات أن نستطيع رد هذا الفضل وما لا يدرك كله لا يترك جله . ويكفينا أننا سكبنا الدمع الثخين على جثمانك وما زلنا نسكبه كلما خطرت على بالنا ، وأنت ممثل في الخاطر دائماً . وإننا سنظل محتفظين بذكراك ، وناهجين على منهجك القويم ، وسائرين على خطتك . فنم هانئاً آمناً مطمئن البال . وعوض الله اللغة العربية خيراً . وعليك رحمة الله .

بغداد

محمد فائح توفيق

عيناك . !

ولئن كان البصر خير حواسنا الخمس ، فاننا لا نعطي أداته حقها من العناية اليومية . . فكم أجزاء من الجسم يعني المرء بها كل يوم ، قبل أن يفكر في العناية بعينيه .

وقد يكون العذر أنك لا تعرف طرق العناية بالعين .. فاليك البعض منها .. اتبعه تحفظ بصرك سليماً قوياً :

١ — اذا أحسست تعباً في عضلات عينيك فاغسلهما بماء بارد . ودلكهما بمنشفة نظيفة تدليكاً دائرياً .. ثم أغلقهما واضعاً راحتيك على أجفانك لمدة خمس دقائق .

٢ — عرض عينيك للشمس وأنت مغمض الاجفان في الصباح الباكر . . وكذلك في وقت المغيب لبضع دقائق .

٣ — لا تقرأ وأنت مستلق في السرير على ظهرك .. واياك أن تقرأ في ضوء خافت .

٤ — يجب أن تكون الاضاءة للقراءة جيدة . وأن تكون من خلف القارىء بحيث لا تصدم عينيه .. كما لا يجب أن يكون هناك أي ظلال على الصفحة التي تقرأها أو تكتب عليها

٥ — يراعى أن يكون الكتاب بعيداً عن عينيك بثلاثين سنتمتراً . واقرأ أو اكتب وأنت معتدلا في جلستك دائماً . وقرب الصفحة اليك ولا تنحني عليها .

٦ — تمارين الرقبة تفيد البصر وتقويه . فحرك رقبتك ذات اليمين وذات اليسار . . عشر مرات .. وكذلك الى الامام والى الخلف .. وتحريكاً دائرياً أيضاً .

٧ — قبل أن تنام اغسل عينيك كل ليلة بمحلول حامض البوريك ٤ ٪ لازالة ما علق بهما من أتربة طوال اليوم .. وفي الصباح ضع فيهما بضع نقط من القطرة الزرقاء التي تصرفها وزارة الصحة لطالبيها

٨ — زر أنت وأفراد عائلتك طبيب العيون مرة في السنة على الاقل . وان لم يك بأحد منكم مرض بعينيه يدعو لضرورة هذه الزيارة .

٩ — عينا طفلك جوهرتان .. رسالة الذباب ان يسلبهما . . فاطرده دائماً عن عيني طفلك . . لانه يسبب له الرمد الصديدي . رسول العمى في مصر .

١٠ — ضع « نظارة » شمس على عينيك كلما سرت في وهج الطريق .

فهمي عطا الله

أنغام باكية

سلوا الأيام هل رقت لحالي   وهل أصغت لشكواي الليالي !
وهل رنَّت بأنغامي كؤوسٌ   وهل نطقت بأسرار الجمال !
وهزَّ الراحُ أعطاف الندامى   وداعبت النهى بنتُ الدوالي !
وهل بكت الطيورُ بشدو روحي   على الأغصان أو فوق التلال
وهل غنى حُداة العيس ليلاً   بنجوى مهجتي بين الرمال
وأنَّ الريح من شكوى غرامي   أنيناً هزَّ أركان الجبال
عرفت الحب فذًّا عبقريًّا   فعلمني الهوى نبل الخصال
وقد يسلو محب عن هواه   ولست عن الهوى يوماً بسالي ..
وغاية هذه الدنيا فناء   وحبي لن يصير الى زوال
سيصحبني غرامي في حياتي   ويبقى ذكره بعد ارتحالي ! !
ولم أرَ كالهوى داءً نبيلاً   ولا نقصاً يقود الى الكمال
عجبت له يسوم الجسم حيفاً   ويسمو بالنفوس الى المعالي
وقد ناءت به الدنيا وكانت   ولم يكن الهوى فوق احتمالي
شقيت به شقاءً عبقريًّا   وجافاني له صحبي وآلي . !
فما بكت العيون بمثل دمعي   ولا سمع الزمان بمثل حالي
ولا خطَّ اليراع على جبين   ولا جرت السطور بما جرى لي
وكم بالغت في شكوى زماني   فما رحم الزمان ولا رثى لي
وان كان الهوى حرًّا نبيلاً   فأذِّن للسعادة بالزوال !
أقضِّي الليل أسأل عن حبيبي   فلا أجد الجواب على سؤالي
ولو أني رُحمت لمتُّ وجداً   ولكني أعيش على الخيال !
فيا أهل الهوى إن ناح طيرٌ   سلوا الأيام هل رقَّت لحالي !

عفيفي محمود عفيفي
كلية العلوم بالعباسية

مع تولستوي في كتابه

الحرب والسلم

كلمة تمهيدية

كنت أستمع ذات عشية إلى برنامج (الأمناء على العقل (١)) الذي تذيعه محطة الإذاعة البريطانية فأصغيت إلى محاورة طريفة تجرى بين نخبة من أساطين الفكر في بريطانيا . ويلوح لي أن هؤلاء السادة المفكرين قد أدركوا ما تعرّض له العقل البشري الحرّ المنتج من حرَج وعنت وخطر بسبب ما فرضته أحوال الحرب من قيود شديدة ومن خضوع للدعاية واستكانة للعاطفة المغرضة ، فرأوا أن يصرفوه إلى معالجة المواضيع العلمية والأدبية البحتة ، لعلّ الذهن بهذا الغذاء المفيد الصالح يخرجْ من غمرة الحرب ، وقد نما وازدهر وجلى عن نفسه صدأ الخمول وفزع الأيام القاتمة ، فيعود كما كان قبل الحرب بل أروع وأنشط .

أجل ، لقد شُغفت بالاستماع إلى هؤلاء العلماء والأدباء الذين نصبوا أنفسهم أمناء على العقل بل حماة له ، فجعلوا يعقدون جلسات دورية يتناولون في أثنائها البحث والإجابة على أسئلة مختلفة ترد عليهم من أطراف المسكونة ، فيجيب كلٌّ منهم بدوره مرتجلاً ، مبيّناً رأيه في كل نقطة ، فيحدث بينهم تارة جدل عنيف صاخب ، وأخرى يسود الهدوء الشامل المنبيء بالاتفاق . وأعجب ما فيه حقًّا وأكثره لفتاً لنظر المستمع الشرقي ومجلبة لاهتمامه واحترامه اختفاء المنافسة الشخصية الحادة حين مداولة البحث ، إذ تحفزهم روح العلم وروعة التهذيب على احترام آراء بعضهم بعضاً والسعي معاً الى بلوغ الحقيقة المطلقة . فيتناول عريف الجلسة ما يبديه الأعضاء من آراء ، وببراعة نادرة يحاول تلخيصها والتوفيق بينها . ولايكاد يشذّ عن هؤلاء إلاّ الفيلسوف الانجليزي المشهور البروفسور (س . مَ . جود) (٢) ذو النبرة الموسيقية الحلوة والعقل المهيمن والمعرفة الدقيقة الشاملة المؤذية أحياناً بسبب ذلك ، والبديهة الحاضرة والمقالة اللطيفة تجري على لسانه فتطرب عقل السامع وقلبه معاً .

---

(١) Brain's Trust

(٢) C. M. Joad

والفيلسوف (جود) قلّـما يذعن لرأي أحد في أثناء النقاش . وكم من رؤوس صلبة تحطمت على صخرة رأسه !

في تلك العشية سمعتهم يجيبون على هـذا السؤال — : « لو قيل أنك بعد ستة أشهر سوف تبرح هذه الدنيا إلى عالم البقاء ، فما عساك تصنع في خلال هذه المدّة ؟ » .

سمعت الفيلسوف (جود) يصرّح بأنه لن يبدّل طراز عيشه ، بل يمضي في الحياة كأنما هو يجهل ساعة الموت . ويعلل ذلك ويدعمه بقوله إنه لو بدّل شيئاً – في البقية القليلة الباقية له من عمره ، لدلّ هـذا على أنه قضى حياة فاشلة ، وأنه يجهل جهلاً تامّـاً كيف يعيش عيشة مثالية مرضية » .

وقال العلاّمة جوليان هكسلي (٣) « يخيّـل إليّ أنني سأقضي معظم الوقت في الاجتماع إلى روائع بيتهوفن وهوبرت ومندليف الموسيقية الخالدة ولسوف أظلّ أكرع من ينبوع هذا الفن الرفيع حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً » .

بيد أنه لفت نظري جواب أحدهم إذ قال : « أما أنا فلسوف أطالع قصة (الحرب والسلم) لتولستوي ، وأعيد قراءتها المرّة تلو الأخرى . حتى أستشبع من هذا الأدب الرائع وأتزوّد منه الزاد الـكافي قبل تلك الرحلة الطويلة الشاقة » .

وفي جلسة ثانية سمعت غيرهم يجيبون على هذا السؤال : « لو قدّر لك أن تكون مؤلفاً قصصيّـاً خطير الشأن ، فما القصة التي تختارها من بين قصص العالم وتتمنى لو كنت ألفتها ؟ » .

ومع أن بعضهم ذكر (البؤساء) لهوجو وديفد كبرفيلد لدكنز وغيرهما إلاّ أنني كدتُ ألمس إجماعاً على كتاب (الحرب والسلم) لتولستوي ،

وقال الناقد الأديب المشهور فورستر في إذاعـة لهم « أنه لا نزاع ولا إشكال في أن قصة (الحرب والسلم) لأعظم ما أنتجه عقل أوروبي في هذا الباب » .

ولا أخال القارىء بعد ما سمع ذلك الاطراء عن هذا الـكتاب إلاّ تائقاً لمطالعته . وهذا ما فعلته مدّة شهر ، حُملت في أثنائه على أجنحة الخيال الى أوائل القرن التاسع عشر ، وألفيت نفسي هائماً في أجواء روسية تارة ، وأخرى أوروبية طيلة الأيام التي قضيتهـا في صحبة هـذا الفيلسوف العظيم ، حتى كدت أنسى أنني أعيش في منتصف القرن العشرين معاصراً لأعظم أحداث شاهدها التاريخ .

ولقـد خطر لي أن أعرض للقارىء الـكريم بعض الفصول التي وقفت عندها في إثناء

---

(٣) Julian Huxley

مطالعتي لهذه القصة ، عسى أن نجد في عرضها ومراجعتها غذاءً كاملاً لنفوسنا ومتعة وزاداً نتبلّغ به في حياتنا الفكرية والروحية . فما أحوجنا إلى هذا الزاد في هذه الدنيا المقفرة الخالية من أطايب الفكر والروح ! بل ما أحوجنا إلى مطالعة تولستوي والحديث عنه . فإن إسمه بلسم يشفي جراح هذه الإنسانية الشاردة المعذبة ، ويلمس قلوب أهل الفكر الكسيرة ليلطف عليهم الحياة القاسية . ويبعث في نفوسهم القوّة على مواجهة أحداث الزمان بإيمانٍ وثقةٍ وصلابة .

إن إسم تولستوي رمزٌ لقوّة الروح التي لا يطمسها صخب الأيام ومثالٌ للعقيدة الراسخة وعنوان للاصلاح الاجتماعي والمحبة الإنسانية الشاملة .

نظرة شاملة

تعتبر قصة (الحرب والسلم) أعظم ما أنتجه تولستوي لأنها تتناول موضوعاً تاريخياً خطيراً هو كفاح روسيا المرير ونضالها الجبّار وعلى رأسها القيصر الكسندر والقائد كوتوزوف ضد جحافل نابليون الغازية الغاشمة . وتبدأ حوادث القصة قبيل واقعة أوسترلتز . وفيها يعالج الكاتب الحرب كرمز للقوى الاجتماعية الكامنة الساعية للظهور بشتى السبل، وليس كحركة «دراماتية» يمثل أدوارها أفراد معدودون . ولهذا فإنها تؤلّف وتجمع بين الواقعية والصوفية ، إذ تصوّر بمهارة وابداع هول المعارك وما يعتلج في نفوس المتحاربين من عواطف وأفكار . والكتاب يترك في نفس القارىء أثراً عميقاً بليغاً لا يخلو من التشويش فيشعر كأنّه قد خرج من معمعة القتال بنفس مفعمة بدخان الحرب ودويّ المدافع ، ممتلئة بالذكريات الرهيبة والأشباح المرعبة . إنما أثر واحدٌ يظلّ بالغ الانطباع في النفس كالأثر الذي يتبقى في نفس الجندي حين يخرج من حرب ضروس وقد عزا نجاته منها إلى عامل الحظّ أو الصدفة أو القضاء الذي يلعب أدواراً كبيرة في حياة المقاتلين بل في مجرى جميع الحوادث التاريخية أيضاً .

تقع قصة (الحرب والسلم) في مفترق السبل التي سلكتها القصة منذ القدم ، وكانت في مقدمة الكتب التي مهّدت السبيل لظهور هذا اللون من الأدب القصصي الذي يتجلى فيه الأسلوب الحديث ولو لم يسبقه إلى القصص الانجليزي المشهور ريتشاردسن Richardson لصحّ القول بأن (الحرب والسلم) تعيّن الحدّ الفاصل بين أسلوبي القصة القديم والحديث ، ففيها انتقال من القصة التي تتميز بالتمثيل في الكلام وعدم تدخل المؤلف بصورة مباشرة فيما يقوله أشخاص القصّة أو يفعلون كما هو ظاهر في بعض قصص دوستويفسكي إلى تلك

التي يعبّر فيها الكاتب عن رأي خاصّ ووجهة نظر معينة في كل ما يعرض له من مواضيع وأحداث ، فيقف بين الفينة والفينة وقفات قصيرة أو طويلة حسب مقتضى الحال ليعلّل ويحلل ويبسط ويعلق .

ولقد تسرّب العامل السيكولوجي إلى سرد الحوادث وبحث الأوضاع الاجتماعية والسياسية والروحية ووصف الأشخاص . وبرع تولستوي في الغوص على مكنونات النفس البشرية واستخراج دفائن العقل الباطني إلى حدّ يُخيّل معه إنك أمام عقل وعى أصول السيكولوجيا الحديثة . لقد كانت القصة تمتاز من قبل بوصف الكاتب أفعال الأشخاص وسرد أقوالهم دون تعليق عليها ، أما تولستوي. فقد تطرّق الى بسط الأسباب وايضاح العلل وشرح الدوافع الخفيّة التي تحرّك أشخاص القصة وتحفزهم للعمل ، كما يتجلّى على الخصوص في (الحرب والسلم) و(أنّا كارانينا) ولهذا باستطاعتنا تقسيم مؤلفات تولستوي في باب القصة ومن حيث مراعاة التحليل السيكولوجي إلى قسمين الأول وهو دور مران وتحضير ، والثاني وفيه ألّف (الحرب والسلم) و(أنّا كارانينا) على نسق جديد ، بيد أنه في (الحرب والسلم) أكمل فنّه وحسّنه وجمّله ، وجعله غاية في نفسه .

ولقد اتخذ تولستوي لقصة (الحرب والسلم) جوّاً تاريخيّاً زادها قيمة وروعةً وبهاءً وقرّبها من الحياة الواقعية ، وقدّمها للناس أدباً ممتازاً ، فتكاد لاتدري وأنت ماضٍ في مطالعتها أفي الماضي تعيش مع أولئك الناس الذين امتلأت نفوسهم وأذهانهم باسم نابليون ، أم في الحاضر بمشاكله وشؤونه المختلفة كل الاختلاف ، بل إنك في الواقع تحار في ما تقرأه ، أحقيقة تسميه أم خيالاً ؟ لأن تولستوي كان بارعاً في اكساء الحقيقة ثوباً موشّى زاهياً من الخيال الوثّاب ، وبريشة فنّان ماهر عالج تيار الحوادث التاريخية التي يطرب لها الأدباء ولا يأبه لها صغار المؤرخين ، فيندر أن تعثر عليها في كتب التاريخ . تلك الحوادث الفردية والاجتماعية التي تجمّعت وتكوّنت وصارت فيما بعد تاريخاً قويّاً تدفّق وفاض على المجتمع الروسي ، وغمر العائلة الروسية والاوربية كذلك . ومهما قيل ضدّه من عدم اتقانه إبراز صورة لنابليون برهن عنها التاريخ ، ومهما أثير من جدل واعتراض حول تعليله أسباب الحوادث التاريخية ، فانني أراه سيّداً لا يُدافع وفناناً ذا عين نافذة دقيقة التصوير ، وذهنية جبارة تبصر أكثر وأبعد مما يستطيع المؤرخ أن يفعله . بل إن قصة (الحرب والسلم) تصحّ أن تسمى الحلقة المفقودة بين الحقيقة والخيال ، وبين الأدب والتاريخ ، ذلك أنها مزيج رائع من الحقيقة والخيال وصورة فاتنة خلاّبة يتعانق فيها الأدب والتاريخ .

وفي (الحرب والسلم) ابتدع تولستوي فنّاً جديداً خالداً هو فن القصة المطلقة المكشوفة

التي تعرفك في بدء الأمر على مجتمع غريب عندك ، ثم تدنيك من أفراده وتوثق عرى الألفة والصداقة بينك وبينهم لمدة طويلة . وحين يفرض عليك القدر القاسي مفارقته ، تجد أنه قد ظلّ ماضياً في سبيله دون أن تعرف له نهاية . على الضدّ من ذلك ما تعوّدنا مطالعته من القصص التي ترى لها بداية واضحةً وتصل فيها إلى نهاية محدودة تسكن عندها كل حركة ، وتكاد تقف كل نبضة من نبضات الحياة ، كأن لها باباً تلجه في أول الأمر ، ثم ما تلبث أن توصده خلفك حين تفرغ من مطالعتها . من هذا النوع مثلاً (سوق الغرور) لثاكري ، و (الطاحونة على نهر فلوس) للكاتبة الانجليزية المعروفة بجورج أليوت وغيرهما .

أما (الحرب والسلم) فتكاد تجيء في صعيد واحد مع الالياذة والأوديسا ، ذلك أن تيار الحوادث وسيل الحوادث ونهر الزمان لا يقف في أيٍّ منها إلى حدٍّ أو يبلغ نهاية رغم انتهاء الكتاب ، بل يظل جارياً جارفاً أبداً ، متدفقاً أبداً . وفي كل مرة يبدو لك فيه أن القصة أوشكت أن تنتهي ، لمحت حوادث جديدة قد تولدت وانبعثت وراحت تسعى الى ما لا نهاية له ... وهذه ميزة تنفرد بها قصة (الحرب والسلم) وحدها ، ولا توجد في كتب تولستوي السابقة أو في قصص غيره من الأدباء . لهذا فان قصة ما لم تحز ماحازته (الحرب والسلم) من شهرة واسعة في أوربا ولا سيما في بريطانيا . فقد سماها الكاتب القصصي المشهور (غالزورذي : أعظم قصة ألفت) . وقال عنها الناقد الأدبي (لبوك) (أنها صورة للحياة لا يعلو عليها شيء ! إن أول واجبات الكاتب القصصي خلق الحياة ، وهنا نرى كيف تخلق الحياة بحق إذ أن قصة غيرها لم تتناول عامة الناس على مثل هذا النطاق الواسع الذي تلمحه في الحرب والسلم) . فبيير وأندرو وناتاشا وغيرهم من شخوص القصة جميعهم من أبناء الأمس واليوم والغد ، ولا ينفرد أحدٌ بشيء من كل الناس في كل الأزمان !

ويقول الناقد الانجليزي فورستر في كتابه (جوانب من القصة) « لم يتسنَّ لكاتب غير تولستوي وضع صورة كاملة لحياة الانسان في المظهرين البيتي والطولي ، المتمثلين في البيت وفي ميدان القتال . والقارىء لن يضيق ذرعاً بهذا الكتاب أو يعتريه ملل وسأم من قراءته لأن حوادث القصة ترفعه على أجنحتها رفعاً وتجري به فوق الفضاء وفوق الزمان معقبة في نفسه أثراً كأثر الموسيقى الخالدة. فيشعر حين يقطع شوطاً في قراءتها كأنما أوتاراً عظيمة قد تحركت خلفه باعثة أنغاماً شجية ساحرة . أوتاراً آتية بالنغم العذب من مساحات روسيا الممتدة الشاسعة ، قد انتثرت فوقها بحور وغابات وحقول وأنهار وجسور وجرت عليها أحداث وخطوب وتحركت فوقها أمم وشعوب . فتمتلىء نفسك حين تمر بها

أو تستعرضها معاني عالية ومشاعر سامية وألحاناً مدوية رائعة . كثيرون هم الذين يتحسسون الزمان بالزمان حين يكتبون ، بيد أن الذين يتحسسون بالفضاء قلائل . ومنهم تولستوي فانك تشعر أن كل حادث في القصة بل كل عنصر منها حتى حالة علاقته بالفن العسكري يكاد يجذب وراءه حياة زاخرة بالناس من كل جنس ولون ووجوداً هائلاً تحس به وتدركه فتنطبع في نفسك كل الحياة » اه

ولقد أجاد الأديب الفرنسي دي فوج الثقة في الأدب الروسي حين قال « من اليسير ادراك ما يخامر القارىء من شعور وهو يطالع (الحرب والسلم) أو (أنا كارانينا) . فانه يرى نفسه بادىء ذي بدء حائر العقل ، مبلبل الذهن لا ينساق مع حوادث القصة بسهولة ثم يعتريه سأم وكلل عقلي ما يلبثان أن يزولا بعد أمد قصير ، إذ تحمله حوادث القصة حملاً وتدفعه مع حركتها الدائمة دفعاً وتأسره بما فيها من مشاعر متنوعة وألوان من الحياة مختلفة ، وتجعل له من بين أشخاصها أصدقاء يحب أن يدنو منهم ويعاشرهم ، وأن يسبر أغوارهم ويبحث عن مصائرهم في الحياة . بل أن يشعر حين ينجز قراءتها بما يشعر به كل فرد من لوعة البين وأذى الفراق حين يودع أسرة نشأ في ظلها وتربى مع أبنائها ، وعاشهم أعواماً طويلة . ان قصة (الحرب والسلم) صورة صادقة لحياة مسافر رماه الدهر بصحبة فئة من الناس الغريبين عنه ، فالعيش معهم يبعث في نفسه القلق والضجر والكدر في بدء الأمر ، ثم سرعان ما ينكشف له ما غمض عليه من أمرهم ، ويبدو مألوفاً محبباً لديه ما غرب من طبعهم ، فيجذب إليهم ، ويتعوّد طريقتهم في الحياة ، ويمتزج بهم حتى يرى نفسه واحداً منهم ، فلا يعود يطيق الافتراق عنهم . وهذا شأن القارىء مع هذه القصة العظيمة ».

ولا بد أخيراً من الاشارة الى أن تولستوي كان حاذقاً في تقسيمه أشخاص القصة إلى فريقين عائلي وتاريخي دون الخلط بينهما بما قد يزيد في تعقيد عناصر القصة أو تشويش حوادثها . وقد يفيدك ان تذكر وأنت تطالع (الحرب والسلم) أن تولستوي كشأنه في معظم قصصه قد صوّر بعض جوانب خلقه ومظاهر شخصيته وطرفاً من حياته في البرنس أندرو ، هذا البطل الانساني الطامع الذي لست أشك بأنك سوف ترى فيه هماً عالية وصفات نبيلة سامية تحفزك لاحترامه ، بل تحبب اليك مصادقته ، وتدفعك لأن تذرف الدمع مثل ما فعلت يوم رأيته يفارق الحياة . كما أن جانباً من نفس تولستوي يبرز بوضوح في شخصية بيير الفذة الذي يعتبره أكثر الناس ، واعتبره كذلك بحق ، بطل هذه القصة العالمية .

تولستوي وتعليل الحوادث التاريخية

لا ريب في أن جانباً من عبقرية تولستوي كما تتمثل في قصة (الحرب والسلم) يتجلى في هذه الوقفات التحليلية العميقة التي يقفها على هامش القصة ليعالج فيها ما يعرض له من مسائل التاريخ ومشاكله الكبرى ، ولست بحاجة لتفصيل حوادث هذه الحقبة من التاريخ التي يعيش فيها أشخاص (الحرب والسلم) لأنها أشهر من أن توضح وتعرّف للأديب المثقّف . ولست أشك في أنه لم يمرَّ على أوروبا في جميع أدوار تاريخها السياسي برهةٌ لفتت إليها الأنظار ، وأعقبت في أذهان الأوروبيين تأثيرات وانطباعات أبلغ وأعمق مما فعلته تلك الحقبة من التاريخ التي عُرف فيها نابليون قائداً عظيماً إسمه على كل لسان ، وقنصلاً ثم امبراطوراً خطير الشأن ، ولست أدري من أبعد تأثيراً في نفوس الناس وأشدّ وأعمق ، ذلك العهد من التاريخ ، أم هذه السنوات الست التي ودّعناها بالأمس وعانى العالم في خلالها ويلات أشرس حرب في تاريخ الوجود البشري .

في هذا الفصل من كتاب (الحرب والسلم) يعالج تولستوي الأسباب التي تفضي الى الحوادث التاريخية عامة ، والتي بعثت الحرب بين روسيا وفرنسا خاصة . وفيه يحاول دَحض عقيدة رسَّخها علم التاريخ وطبعها في الأذهان ، ودَعمَ حقيقة خطيرة تبدو لأول وهلة غريبة ، وهي أن الرجال الذين ، في أيديهم مقاليد السياسة والادارة والحكم إنما هو في الواقع عبيد التاريخ ، يستخدمهم ويستثمرهم كالأدوات الصمّ لبلوغ أهدافه المقرَّرة من قبل فلا يستطيع هؤلاء الحكام والقواد مقاومته في ذلك ، لأنها أهدافٌ مقضيٌّ بها منذ الأزل فلا مَعدًى لهم عن الاندفاع والجري مع تيَّاره الجارف والرضوخ لحركته واتجاهه .

يقف فيلسوفنا من الحملة الفرنسية مندهشاً حائراً معقود اللسان ، لا يدري كيف يعلّل أسباب هذه الظاهرة العظيمة . ألوف بل ملايين من الناس في غربي أوروبا يشرعون في التجمع والاحتشاد منذ سنة ١٨١١ ويأخذون في الزحف صوب الشرق ويمعنون في ذلك فيتخطون الحدود الروسية ويكادون لا يقفون إلاَّ في موسكو . لكنهم ما يلبثون أن يعودوا القهقري ويرجعوا من حيث جاءوا حاملين في إيابهم بذور الخيبة والهزيمة المنكرة . يقابل ذلك ملايين أخرى تتأهب في الشرق لمجابهة أولئك ، فتندفع من أواسط روسيا ميمِّمة شطر الغرب ، وفي ١٢ حزيران ١٨١٢ تلتقي هاتان الموجتان الصاخبتان من بني الإنسان ، فيكون ذلك نذير وقوع حرب لم يعرف لها التاريخ من قبل نظيراً . هذا الاضطراب بين الملايين يراه تولستوي في ظاهره منافياً للعقل ومخالفاً لقوانين الطبيعة البشرية . فلا

جرَم إن وقف حائراً يبحث عن العلل الحقيقية التي أدَّت إليه .

فيستعرض الآراء التي يبديها النـاس في بواعث تلك الحرب ، فيرى أن المؤرخ يعزو وقوعها إلى الإهانة التي ألحقها نابليون بالدوق أولدنبرج (١) ، وإلى عدم مؤازرة قيصر روسيا في انجاح الحصار الذي فرضه نابليون على بريطانيا ، وإلى طموح نابليون الشخصي أو ثبات قيصر وصلابة عوده ومتانة مركزه ، وإلى أغلاط الرجال الذين يديرون دفة السياسة في أوروبا . ويقول تولستوي إذا كان أحد هـذه الأسباب التي يسردها المؤرخ أم كلها مجتمعة، هو ما أثار تلك الحرب ، فقد كان بالإمكان الحيلولة دونها بشكل ما ، كأن يحسن مثلاً كل من أولئك الساسة النية والتصرُّف ويخلص في جهوده لتوطيد السلم ، فيسعون جميعاً إلى الإتفاق على نصوص المعاهدات مما قد يؤول إلى حسم أسباب النزاع واجتثاث الشرّ من أصوله . أو أن يخط نابليون الى الكسندر رسالة تنمّ عن روح المودَّة الصادقة والصفاء الخالص ، مُعرباً فيها عن رضاه بإعادة دوقية أولدنبرج إلى صاحبها في الأصل ، إلى غير ذلك من السبل التي تطرق والجهود التي تبذل للحيلولة دون وقوع الشر أو تفاقمه .

ذلك ما يذهب إليه المؤرخ . أما نابليون فيرى أنه لم يكن ثمة بدٌّ من الصدام مع روسيا بسبب نشاط الدبلوماسية البريطانية ودسائسها الشيطانيـة (كما صرَّح في جزيرة القديسة هيلانة) . ثم من البديهي أن يرى أعضـاء البرلمان الانجليزي طموح نابليون ونزعته الجشعة للسيطرة وحبـه للسلطان ، سبباً آخر وجيهاً . وأن يعدّ صاحبنا الدوق أولدنبرج في دوره مالحقه من إهانة ، الباعث الحقيقي والمباشر لهـا . وأن يرى رجال الأعمال في أوروبا سببها في النظام القارّي الصـارم الذي فرضه نابليون على أوروبا وذلك بحظر المتاجرة مع بريطانيـا ، ممَّـا سبب ضجراً وكدراً وتدهوراً إقتصاديًّا خطيراً في أوروبا وكذلك في روسيا . أما القوَّاد العسكريون وغيرهم من رجال الجيش فيؤكدون أنه لم يكن مناص من حرب تقع لتشغل ألوف العاطلين منهم ، بينا يرى الساسة في ذلك العصر أنها نجمت عن اخفاقهم في إخفائهم عن نابليون إخفاءً تامًّا بنود تلك المعاهدة السرية المعقودة بين روسيا والنمسا سنة ١٨٠٩ . زدْ إلى ذلك الصيغة الحادَّة والأسلوب الجاف الذي به خُطّ الإنذار رقم ١٧٨. ومن البديهي أن تبدو هذه الأسباب وعشرات مثلها وجيهة معقولة لدى أهل ذلك العصر حسبما يتراءى لكل منهم ، ومن الزاوية التي ينظر منها إلى حوادث التاريخ المعاصر، أما

---

(١) هي دوقية أولدنبرج في المانيا انتزعها نابليون سنة ١٨١٠ من صاحبها بطرس فردريك أسقف لوباك . وقد أبى أن يبادلها نابليون بمقاطعة ارفرت (Erfurt) فأرغم على الفرار والالتحاق بالحلفاء ضد نابليون بيد أنها عادت إليه فى مؤتمر فينا سنة ١٨١٥ مع مقاطعة بكنفيلد Bukenfild بمؤازرة قيصر روسيا (الموسوعة البريطانية)

نحن أهل هذا الزمان ، فما موقفنا منها ؟ أحرَ بنا أن نراها عقيمة تافهة لا وزن لها ولا خطر ، فلا تقنع الباحث المفكر منا أو تنقع غلته . ذلك لأن المعاصرين لتلك الاحداث التاريخية العظيمة لم يكونوا في الواقع يبصرون من الحرش غير الأشجار على حدّ التعبير الانجليزي في حين أننا ، بسبب البعد الزمني نكاد نبصر الحرش بكامله .

ويعالج تولستوي جميع هذه الأسباب مبيناً صعوبة بل استحالة الأخذ بها رغم زعمه بأنه ليس بالمؤرخ المحقق . ويعتقد أن كل سبب ظاهر للحملة الفرنسية قد يبدو بحدّ ذاته معقولاً مقبولاً ، بيد انه ليس كذلك حين يقاس بخطورة الحوادث المنبثقة عنه . إذ لا يُعقل أن يبلغ سببٌ واحدٌ حدًّا كبيراً من القوّة والتأثير بحيث يجلب على العالم الاوربي أحداثاً خطيرة كتلك. لهذا يؤكد تولستوي أن تكون هناك أسباب أخرى عديدة عملت جميعها يداً واحدة وتساندت وتآزرت . وربما سلكت في بدء الأمر سبلاً شتى ، إلاّ أنها لم يكن لها مناص من الالتقاء أخيراً في طريق واحد ، والتضافر والسعي نحو تحقيق هدف واحد هو ذلك النزاع والاصطراع الذي أمسى وقوعه محتماً . ويخيّل لتولستوي أن رغبة جندي واحد في القتال أو عنه لسبب يبلغ من الوجاهة والخطورة والتأثير حدًّا لا يقلّ عمّا بلغه رفض نابليون سحب قواته عبر نهر الفستولا ، نزولاً على طلب الكسندر كشرط أساسي لوقف القتال . بل انه لا يقلّ قيمة وخطراً عن رفض نابليون اعادة دوقية أولدنبرج لصاحبها إذ لو أبى جندي واحد الانخراط في سلك الخدمة العسكرية أو عدم المضي في العمل في أحد أدوارها وفعل ذلك ثانٍ وثالثٌ وغيرهم لأدّى ذلك إلى نقص في عدد رجال الجيش وبالتالي إلى عدم اقدام أحد المعسكرين على المجازفة بقبول الحرب ، أو استئنافها في أحد مراحلها بأية حال .

فقد كان من اليسير تجنّب هذه الحرب على هذا الأساس من التعليل الخاطىء لو لم يرَ نابليون تحدّياً واساءة في طلب القيصر سحب قواته وراء الفستولا . فيأمر جنوده بالهجوم لمحو تلك الاساءة . وكان هيّناً أن يُحال دون وقوعها لو رفض الضباط والجنود العمل في إحدى مراحل الخدمة العسكرية . والحرب ما كانت لتقع قطّ لو أحبط نشاط الدبلوماسية البريطانية كما زعم نابليون ، أو لو انه لم يكن في الوجود رجلٌ اسمه الدوق أولدنبرج ، أو لو ان الكسندر لم يغضب لكرامته بسبب امتهان نابليون له كما يدّعي ، أو لولا انه لم يقمْ في روسيا آنئذٍ حكمٌ فرديٌّ مطلق ، أو لولا اندلاع لهيب الثورة الفرنسية من قبل ، وما تلا ذلك من قيام دكتاتور وامبراطورية ، أو لولا جميع الظروف والأهوال التي أدّت إلى تأزّم الوضع السياسي بسبب الحالة الاقتصادية والاجتماعية مما أفضى الى الثورة

الفرنسية . والواضح ان ليس ثمة سببٌ واحدٌ من هذه الأسباب التي يذكرها . الناس إلاّ أمكن معالجته بمفرده والحيلولة بواسطته دون وقوع الحرب . ولكن الحقيقة التي لا ريب فيها انه لم يكن له سببٌ واحد أو عشرةٌ ، وإنما هذه الأسباب كلها وألوفٌ غيرها من المنظورة وغير المنظورة الظاهرة والباطنة ، جميعها عملت معاً وسلكت سبيلاً واحدة ، فأنتجت تلك الحرب وتلك الحملة الهائلة التي ما يزال يتردد صداها في نفوس الناس وعقولهم في أوربا وفي أسيا كذلك .

وقد يتوهم المرء ان وقوع الحرب الروسية — الفرنسية كان متوقفاً على ارادة القيصر أو الامبراطور وحدهما لاغير . والحقيقة انه كان يتوقف على ارادة ملايين البشر الذين في يدهم منفردين ومجتمعين السلطة الحقيقية والتأثير البعيد كالجنود الذين رضوا لأنفسهم ان تقدّم على مذبح المريخ ، والرجال الذين رافقوا الجيش وأمدّوه بالمؤن والمعدّات الكافية ، والعمال الذين صنعوا له كلّ لوازمه وهيأوا حاجاته ، والمدنيين الذين دعموه وعضدوه بمؤازرتهم الأدبية والمادّية ، ومئات الألوف غيرهم بما لكل منهم من تأثير مباشر أو غير مباشر في سير تلك الحرب في روسيا وفي فرنسا بل في جميع أوربا .

وما دام الأمر على هذه الشاكلة ، فلا محيص من الرجوع إلى القدرية كعقيدة أساسية يستند اليها في تعليل أسباب تلك الحرب بل كل حرب في التاريخ لا يستطيع العقل احصاء أسبابها . إذ كلما حاولنا ردّ تلك الحرب إلى بواعثها الحقيقية وقصدنا تحليلها إلى عواملها بشكل منطقي كلما لاحت لنا بعيدة عن العقل خارجة على قواعد المنطق ، أو تبدّت كأن ليس من سبب ظاهر لها نفهمه ونقبله ونبرره .

ويقول تولستوي شارحاً القدرية ان لكل امرىء في الحياة مطلق الارادة وملء الحرية في تعيين أهدافه الشخصية والسعي كيفما أراد إلى بلوغ تلك الأهداف فيأتي من الأفعال ما قد يقرّبه من تحقيقها ، ويُعرض عمّا يقصيه عنها . والواقع انه حالما يصدر عنه عملٌ ما خطير أو قولٌ له قيمة ، فانه في تلك اللحظة ذاتها يفلت من يده ويخرج من نطاق سلطته وسيطرته ، بحيث لا يستطيع استرجاعه ، فيدخل في نطاق الماضي أو بعبارة أخرى في نطاق التاريخ ويصبح لذلك القول بعد الافضاء به أو للعمل بعد أتيانه تلك الخطورة الاجتماعية والأهمية المقدّرة المحتومة والمقيّدة المحدودة . من هذا نستنتج ان لحياة الانسان مظهرين مختلفين ، مظهر الفرد وهو ما يتعلق بحياته الفردية المستقلة ، التي كلما انطلقت وتجردت في مهامّها وأمورها وأعمالها تحرّرت وأبت التقيد بقاعدة أو الارتباط بقيد . ثم مظهر العضو ، وهذا يتعلق بالحياة الاجتماعية العنصرية . وفيه يرى المرء نفسه مكرهاً عليها

رضوخاً لقوانين شرعت وقواعد وتقاليد فُرضت ووُضعت ، وليس من سبيل الى التحرّر منها . فالانسان في المظهر الأول يكاد يعيش حياته لنفسه ، وفي سبيل تحقيق أهدافه الفردية واعياً مستقلاً إذا أحب . ولكنه يبدو في المظهر الثاني كأنه ألعوبة في يد غيره ، أو كأنه آلة تعمل دون فهم أو وعي في سبيل تحقيق أهداف تاريخية كونية تتعلق بمجتمعه الخاصّ أو بالانسانية جمعاء .

* * *

وهنا نرى كيف يدخل عامل الصدفة في المظهر الاجتماعي من حياة الانسان ، فقد تقع حوادث وتجيء أعمال ملايين من الناس في حين واحد ، فتدخل جميعها في نطاق الماضي الذي هو التاريخ ، وتسبب كلها بمجموعها قوة هائلة لها تلك الأهمية والفعّالية التاريخية وكلما سما المرء منصباً وارتقى في سلّم الحياة السياسية أو الاجتماعية ، كثر الناس الذين يحيطون به ويلتفون حوله ، وكلما ارتفعت مكانته وتضاعفت سلطته اتضح لنا بجلاء انه خاضع لسلطة القضاء في جميع ما يصدر عنه من أقوال أو أعمال لها علاقة بالمجتمع أو بغيره من الناس ، ليس له أدنى نصيب من القوة والارادة الحرة المستقلة في ذلك .

إن قلب الملك في يد الله ، والملك هو عبد التاريخ ، والتاريخ الذي هو الحياة الاجتماعية العامة غير المدركة أو الواعية انما يستغل كل لحظة من حياة الملك ويستخدمها في سبيل تحقيق أغراضه التي لا تدرك ولا ترى ، فمع أن نابليون يعتقد اعتقاداً جازماً بأن عليه وحده كان يتوقف مصير كل ما يجري حوله من أحداث سياسية وأعمال عسكرية ، وانه وحده مسؤول عن سفك دماء الملايين من الأبرياء (كما عبر ذلك قيصر روسيا في رسالة بعث بها الى نابليون) إلاّ أن تولستوي يعتقد جازماً بأن نابليون لم يكن في حين ما أكثر من ذاك مستعبداً لمشيئة القضاء ، مكرهاً على طاعته ، يسيره القدرّ ويوجهه أنى شاء ، وكيفما شاء ، ويسوقه رغم أنفه ، مع ظن نابليون بأنه يعمل وفق ارادته الشخصية ، الى السير في سبيل واحد مع مجموعة المظاهر الاجتماعية لحياة الأفراد الذين يمثلون شتى الأدوار على مسرح الحياة .

لقد زحف أهل الغرب نحو الشرق في حركة خطيرة الشأن مستهدفين تقتيل اخوان لهم من بني الانسان . فنقف من هذه الظاهرة مندهشين باهتين ، نبحث عن الأسباب التي أدت الى مثل هذا الشر الاجتماعي . فيجيب تولستوي بأن ألوفاً من الحوادث الدقيقة جاءت صدفة في حين واحد ، ووقعت في الوقت الملائم ، وانتظمت كما في عقد لإحداث تلك الحركة الشريرة الزاخرة . فسخط نابليون على روسيا لخروجها على قواعد النظام القاري ، وما حل

بالدوق اولدنبرج من اهانة وسوء ، وكذلك زحف نابليون على روسيا للحصول على سلم مسلح كما خيل له ، ثم نزعة نابليون الحربية كلها تجيء في وقت يعتلج فيه . في صدور أبناء فرنسا ميل للحرب ورغبة في القتال . وانبهار المدنيين منهم بعظمة الاستعداد الحربي ، وطمع الكثيرين منهم في غنائم وأسلاب تعوض عليهم ما انفقوه في سبيل ذلك الاستعداد. هذا مع ما لاقاه نابليون من تكريم حلفائه ملكي بروسيا وسكسونيا وأمبراطور النمسا له في درسدن واحتفائهم به طيلة شهر ، مما زاد في عجرفته وزهوه وخيلائه وغذى نزعته العسكرية وقواها . وكذلك المفاوضات الدبلوماسية التي عقدها الساسة للوصول الى سلم شامل دائم ، فأعقب وعد كل منهم بالتضحية في سبيل ذلك مسًّا لكرامة الدولة التي يمثلها وجرحاً لكبريائها . هذه وملايين من الأسباب تهيأت واجتمعت حسب قانون المصادفة وتكيفت على غرار أدى الى تلك الحرب الكاسحة .

حين تنضج التفاحة على الشجرة وتسقط ، نسأل عما سبب ذلك السقوط . هل هو جاذبية الأرض ، أم ما أصاب ساقها من يبس وجفاف ، أم الشمس التي ساعدت في انضاجها ، أم الريح ، أم لأنها أضحت ثقيلة لا قبل للغصن بها ولا طاقة له على حملها ، أم لأن هنالك صبيًّا واقفاً ، يرنو اليها عن بعد ، وكل جارحة في نفسه تدعو لها بالسقوط . الواقع أن لا واحد من هذه هو السبب الوحيد بمفرده بل ان تصادف مجيء الظروف ووقوع الحوادث والتفاعلات العضوية والعنصرية في حين واحد هو ما أدى الى ذلك السقوط فكما أن العالم النباتي يعزو سقوط التفاحة إلى تعليله العلمي ، فكذلك يزعم صبينا بأنه انما ناشيء عن دعواته الحارة.

* * *

ليس الملوك والقواد والساسة العظام الاّ عناوين لعصورهم وأزمانهم وأسماء لحوادث التاريخ التي تقع في عهودهم . ولا تزيد الصلة بينهم وبين تلك الأحداث والعصور عن تلك التي بين العلاج في القارورة وبين الايضاح الملصق عليها من الخارج . بل لا تتعدى قوتهم وسيطرتهم على الحوادث ، وتوجيه سير التاريخ قوة طفل يعدو به الحصان مسرعاً فلا يملك من القوة ما يمكنه من كبح جماح ذلك الحصان وضبطه واخضاعه .

فالتاريخ جارٍ على الدوام بقوة دافقة نحو الأمام . والفرد بل الملك أو القائد أو السياسي لا يستطيع صد هذه الحركة أو توجيهها . بل انه في كل ما يصدر عنه من أفعال أو أقوال انما يفعل ذلك خاضعاً مندفعاً مع تيار التاريخ الغلاب في سبيل معين نحو هدف مقدر محتوم كما أسلفنا ، ومقضي به منذ الأزل .

سير التاريخ

بسطنا فيما مرّ رأي تولستوي في تعليل الحوادث التاريخية ، وملخصه أن من نحسبهم رجال التاريخ هم في الواقع عبيد التاريخ الأرقاء ، لا يملكون القوة التي بها يضبطون حوادث التاريخ ويخضعونها لارادتهم ويوجهونها وفق مشيئتهم . وفي ما يلي سوف أراجع فصلاً عقده فيلسوفنا في سير التاريخ الدائم وحركته المستمرة .

فتولستوي يرثي للعقل البشري لعجزه عن ادراك هذا الاستمرار الدائم المطلق لحركة التاريخ ، أو معرفة القوانين التي يخضع لها كل عنصر من عناصر الحركة منفصلاً عن الآخر غير حاسب انه من جراء هذه التجزئة المصطنعة سوف يقع في هوّة سحيقة من الحيرة والارتباك والخطأ الكبير . ويستعين تولستوي على توضيح رأيه بالأسطورة اليونانية المعروفة التي شغلت أذهان الأقدمين وبلبلت عقولهم مدة من الزمن أعني بها أسطورة (أخيلا والسلحفاة) . وأخالك تذكر أن أخيلا لم يستطع ادراك السلحفاة رغم محاولته اللحاق بها ، ذلك لأنه كان يسير بمعدل من السرعة يعدل عشرة أمثال تلك . فكلما قطع أخيل المسافة بينه وبين السلحفاة ، وجدها قطعت عشر المسافة أمامه . وحين تقطع ذلك العشر تصبح على بعد واحد من مئة عنه . وهكذا دواليك مما يدل ظاهراً على استحالة ادراكه لها ، وقد غرب عن بال الأقدمين وهم يتدارسون هذه المسألة ويبحثون عن حل لها ، أنهم قد ضلوا سبيل الهدى مذ جزأوا المسافة كلها الى أجزاء منفصلة بينما حركة أخيل والسلحفاة معاً استمرار واحد منطلق لا سبيل الى تجزئته . وقد نقرب من حل لهذه المشكلة التي تبدو مضللة بتقسيم الحركة الى عناصر متناهية الدقة والصغر . بيد أننا لن نصل إلى حلٍّ تام بغير جمع حدود المتوالية الهندسية اللانّهائية الناجمة عن تجزئة الحركة إلى فترات يرتبط بعضها ببعض بنسبة واحد على عشرة ، التي هي نسبة سرعة السلحفاة الى سرعة أخيل .

وتولستوي لا يقسو في حكمه على الأقدمين لعجزهم عن فهم ما تنطوي عليه هذه الأسطورة من مغالطة وسفسطة ، ذلك أنهم لم يكونوا يُلمّون بهذا الفرع من الرياضيات العالية الذي يسهل عليهم الوصول إلى حلٍّ يروي الغليل ويرضي العقل . وإننا حين نبحث عن القوانين التي تسير التاريخ وتوجه حركته ، إنما نقترف مثل ذاك الخطأ الذي فيه وقع

الأقدمون بسبب معالجتهم عناصر عديدة مختلفة للحركة بدلاً من وحدة تامة مستمرة . فحركة التاريخ الناشىء المتكوّن من مجموعة من الإرادات والرغائب البشرية العديدة ليست إلاّ حركة دائمة السير لا انقطاع لها ولا انفصال بين الأجزاء والعناصر التي تتألف منها .

وعلم التاريخ يسعى جاهداً إلى معرفة هذه القوانين التي تضبط حوادث التاريخ وتوجّه سيره . وهي كذلك الهدف الأسمى لعلماء التاريخ في جميع دراساتهم وجهودهم الفكرية العنيفة . بيد أنهم يستسهلون تجزئة الحركة ، حتى يعالجونها ، إلى وحدات منفصلة فيقعون بسبب ذلك في حيرة ويضلّون سبيل الرشاد .

وأول نهج يختاره علم التاريخ ويسلكه لتحقيق هذا الهدف يكون باختيار سلسلة من الحوادث المستمرّة يفحصها علماؤه ويدرسونها ، إحداها منفصلة عن الأخرى . مع العلم أن ليس هنالك نقطة ابتداء واضحة معينة لأيّ حادث تاريخي . ذلك لأنّ كل حادث يتسبّب عن آخر سابق له ، وينبعث منه ، ويتولد عنه . وعملية الانبثاق والتوليد هذه في استمرار دائم مع الزمان في سيره .

وأما النهج الثاني لعلم التاريخ في سعيه لمعرفة القوانين التي تضبط سير التاريخ فذلك بأن يقع اختيار علمائه على أقوال فرد واحد وأعماله لتتخذ موضوعاً للدرس والبحث والتنقيب ، مفترضين أنّ الأفعال والأقوال الصادرة عن فرد واحد تساوي مجموعة إرادات أفراد عديدين أو مشيئة أمة بكاملها . بينما من الواضح أنه لا يمكن لشخصية تاريخية واحدة بالغة ما بلغت من العظمة أن تجمع في ذاتها رغائب ومشيئات كثيرة . وكلا السبيلين لا يفضيان بعلم التاريخ إلى بلوغ هدفه الأسمى ، لأنه في كلا الحالين يختار وحدات صغيرة للفحص والتدقيق . ومهما كانت درجة أهمية الحوادث التاريخية ، فإنّ دراسة كل واحدة منها منفصلة عن الأخرى ، أو الظنّ بوجود نقطة ابتداء معيّنة لكل حادث تاريخي ، أو الزعم بأن إرادة أمة بكاملها يستطيع فردٌ واحد أن يعبر عنها تعبيراً صادقاً لهو خطأ فاضح وخطل في الرأي وضلال ، بل أنه مضيعة للجهد والوقت اللذين ينفقهما الباحث في هذا السبيل . فالخمس عشرة سنة الأولى من القرن التاسع عشر شهدت في أوروبا ملايين من الناس يهرعون سُبُل عيشهم ويهربون من طرف أوروبا الغربي الى الآخر الشرقي ، فيتقاتلون

ويتناهبون ، فيفوز أحد الفريقين تارة وينخذل أخرى ، ويمسون جميعاً فرائس الضجر والكدر واليأس والجزع . ولعـدة سنين تخال وجه الحياة ونظامها قد تغير بسبب هذه الحركة التي تنشط في بدء الأمر ، ثم تتباطأ وتخمد وتتلاشى كأنها لم تكن . فيسأل العقل عن الباعث لذلك وعن القوانين الضابطة لهذه الحركة العنيفة الهائلة ، فيذكر التاريخ جواباً على ذلك أفعال وأقوال نفر من الناس اجتمعوا في أحد بيوت باريس مسمياً تلك الأقوال والأفعال (الثورة الفرنسية) . ثم يتجاوز ذلك الى سرد ترجمة ضافية لحياة نابليون ولكل من خصومه وأعوانه ، شارحاً مدى تأثير الواحد منهم في الآخر ، وفي الأحداث المعاصرة لهم جميعاً ، مؤملاً إنك في ذلك سوف تجد الحافز الأكيد لتلك الحركة الزاخرة ، وان تكتشف القوانين التي تضبطهـا وتسيّـرها والعقل لا يرد هذا التعليل ردًّا أو يرفضـه بكامله رفضاً فحسب ، وإنما يتعدّاه إلى التنديد بهذه الطريقة العقيمة من البحث والتعليـل الذي ينطوي على كذب وتمحّك وخداع ، ذلك لأنها تبرهن على وقوع حادث قوي عنيف من جرّاء حافز ضئيل ضعيف . فالواقع ان قيام الثورة الفرنسيـة ، وظهور نابليون قد نجما عن مجموعة من الإرادات الفردية التي أذنت للثورة ولنابليون بالظهور في عالم الوجود التاريخي ، والجري مع الأحداث المندفعـة في حركة دائمة ، وتساهلت في قبولهما في أول الأمر ، بيد إنها عادت ونبذتهما ، وقضت على الثانى منهما قضاءً مبرماً ، لأنهما لم يعودا يصلحان لخدمة التاريخ وتحقيق أهدافه في ظروفه المتبدلة وللتاريخ في ذلك شأن لا نعرفه ، وهدف يسعى لتحقيقه نجهله كل الجهل . وله فوق ذلك ارادةٌ حديديّـة لا تخضع لسلطان الفرد مهما بدا في حين ما عظيماً في أعين الناس . ويزعم التـاريخ أنه مع كل فتح لا بدّ من فاتح ، وفي كل ثورة لا بدّ من رجال يضرمون أوارها . فيجيب العقل هازئاً ساخراً ، ولكن ليس ثمة ما يدلّ على أن الفاتح أو الثائر هما سبب الفتح والثورة ، ذلك لأن قواعد الحرب أو الثورة لا يمكن أن تتركز في جهود فرد واحد ونشاطه . ومثلُ علم التاريخ في تحليله هذا وأسلوب بحثه كمثل من ينظر إلى الساعة فيرى عقاربها تشير إلى العاشرة ، فيسمع عندها أجراس الكنيسة تقرع ، فيظن بل يجزم أن قرع الأجراس سببه وصول العقارب الى العاشرة . كأن هنـالك آصرة أو علاقة وثيقة بين حركة العقارب والوضع الذي تتخذه ، وبين قرع الأجراس . أو كمثل القطار تراه

يهم بالسير فتسمع آنئذٍ صفارة الايذان بالسفر تدوي ، والصمّامات تفتح والدواليب تتحرّك ، فتظن أن هذا الصفير وانفتاح الصمامات وتحرّك الدواليب هو علة حركة القاطرة وسببها الحقيقي . ومثلُ هذا أيضاً اعتقاد الفلاّحين في روسيا بأن هبوب الرياح الباردة في أواخر فصل الربيع قدَ نتج عن ظهور براعم الزهر على شجر البلوط . ومع أننا نجهل السبب الذي حدا إلى مجيء الرياح وظهور البراعم في حين واحد فليس ثمة ما يدل على أن هبوب الرياح ناشىء عن هذه البراعم . إذ كيف يصح ذلك ما دامت الريح على حظ وافر من القوة والشدة بحيث لا يؤثر فيها ظهور البراعم الصغيرة اللطيفة .

اننا في جميع هذه الأحوال إنما نرى حظ المصادفة في وقوع الحوادث، كالذي يجري في جميع نواحي الحياة ليس أكثر . ومهما أنعمت النظر في عقارب الساعة وتفحصت صمامات القطار ودواليبه وشجر البلوط وبراعم زهره ، وبالغت في الملاحظة والدرس ، فانك لن تعرف السبب الحقيقي لقرع الأجراس وتحرك القطار وهبوب الرياح في أواخر فصل الربيع عن هذا الطريق . وما عليك لكي تتوصل الى معرفة ذلكِ الاّ أن تبدل وجهة نظرك بالكلية ، وان تنهج نهجاً آخر في الدرس والتمحيص ، فتحاول معالجة القوانين التي تضبط حركة البخار وقرع الأجراس وهبوب الرياح وتقيدها وتسيرها .

ولكي تنكشف لك القوانين التي تضبط التاريخ وتسيطر على حوادثه وتوجه حركته لا بدَّ لك أيضاً من تبديل موضوع الملاحظة وحقل الدرس واتجاهه تبديلاً تامًّا ، وانتهاج سبيل آخر للوصول الى الحقيقة . وذلك بأن تدع الملوك والوزراء والقواد جانباً ، وان تلتفت الى العناصر الدقيقة العامة والعوامل المؤثرة التي تحفز الشعوب وتحرك الجماهير فانها هي التي تصنع التاريخ ان لم تكن التاريخ نفسه .

ومع أن مدى التقدم في الوصول الى فهم قوانين التاريخ عن هذا السبيل لا يزال غامضاً محدوداً لا يبعث على الرضى والارتياح ، الاّ أن اثنين لا يختلفان في أنه السبيل الأوحد المفضي الى هذه الغاية النبيلة وان جهود المؤرخين في هذا المضمار لمن القلة والضآلة والضعف ، بحيث لا تقاس بجهودهم الجبارة في وصف وتفصيل وتحليل أعمال القواد والوزراء والملوك ، والانتهاء من ذلك كله الى نتائج وهمية خيالية لا يرضى بها العقل .

(السلط — شرق الاردن)

جريس القسوس

ظمآن

أنا ظمآنُ فهاتِ من كؤوسٍ مُترَعاتِ
خمرها للروح بعثٌ من حياةٍ كالمماتِ
لا تلُمني في هواها أنا عبدٌ للسقاة
والمدام الصِّرف دِيني لا أُبالي بالنُّهاة
جفَّ كأسي أيها الساقي فأسرِع بالحياة...!
أنا روحٌ مستطارٌ عذّبتني لهفَاتي
مثلما شبَّ ضرام النار شبَّت حُرُقاتي
أضرمتْ مِنّي كياني وسَرتْ في خطراتي..
ما أرى؟ هذا شهابٌ هائمٌ في الظلمات
يذرع الأكوان وثباً حائراً في الفلوَات
أتُرَاه يطلب المسكين سرّاً لا يواتي ؟
أم تُرَاه عاشقاً تلك النجوم الحالمات ؟
أم تُرَاه جُنَّ شوقاً بالبدور السافرات ؟
إنه روحيَ لا يهدأ أو يرثي شكاتي . . .

***

أنا ظمآن فهاتِ من كؤوسٍ مُترعاتِ
يانديمي.. وَيْك رفقاً بقتيل اللفتاتِ

وصريع الحَدقاتِ والجفونِ الساجيات
والكؤوس الصافيات قاتلاتي مُحييَاتي
ملهماتي صلواتي !
أنا ظمآن فهاتِ من كؤوسٍ مُترعاتِ
كلما دار يميناً أو شمالاً قلتُ : هاتِ
اسقنيها من سُلافٍ أطْلَقتني من حياتي
فإذا بي كلهيف البرق ضجّت ومضاتي
وإذا بي كخفيّ السحر لاحت معجزاتي
وإذا بي كأنين الشجو بُحّتْ عبراتي
أو كلحنٍ مُوثق الأنّات دامي النبرات ... !
أيها الساقي أما تسمع ما فاضت شكاتي ؟
ها أراكَ الآن عنّي صادراً في غفَوَات
كلهم باتوا سُكارى ما لِكأسي لم تُواتِ ؟
ويح نفسي ..! ضنّ ساقيّ فجُنّت أُمنياتي
وجفاني في فضاء الكون تدْوِي صرَخاتي
تنهش الأشواق روحي تأكل الآلام ذاتي
فاتركوني في لظى الحرمان أشدو أُغنياتي
هي كنزي وحياتي هي خمري وسُقاتي...

القاهرة محمد فهمي

القدر

تأليف ج . شلر

كان ألويسيوس ابن رجل من عامة الشعب استطاع بجده أن يرقى الى وظيفة مرموقة في خدمة إحدى الشركات واستطاع أن يعلم ابنه تعليماً طيباً. وأبدى الابن قدرة طموحه لأن يصبح أحد رجال الأمير العسكريين. وكان شابّاً موفور الشباب قوي العاطفة جامحا جريئاً، وكذلك كان الأمير الذي وجّه نظره الى الشاب مشاركته اياه في ظروفه وطبائعه، وسرّه منه سرعة بديهته وجاذبيته وخفة روحه وسعة معارفه التي جعلت منه كعبة الأبصار، وموضع التقدير في كل اجتماع، وشاء أن يستفيد من خدماته، وقرّبه اليه وأضفى عليه من رعايته وثقته، فأوصله إلى درجة لم يكن يحلم بها المحنكون من الساسة والاداريين الذين قضوا حياتهم الاّ قليلاً في الرقي البطيء خطوة خطوة، حتى أصبح هؤلاء يحقدون عليه وينفسون عليه مكانته. إذ وكل اليه الأمير أمر تصريف شؤون أمارته متفرغاً هو لملاذه وملاهيه، وأنعم عليه بلقب الوزارة، رغم أنه كان شابّاً لم يجاوز الثانية والعشرين من عمره.

ولم يكن الشاب ذا تجارب في الحياة، وكان رقيه سريعاً، فما رأى الأمراء وهم أعلا منه منبتاً، وأشرف منشأ، يتسابقون الى ارضائه ما وسعهم التسابق، حتى استيقظت كبرياؤه، واشتدّ صلفه، وتعددت مظالمه، فكثر أعداؤه، وكانوا أقوياء دهاة محنكين، يرقبون كل صغيرة وكبيرة يأتيها يحصونها عليه لتكون سلاحاً في أيديهم اذا دعا الأمر يشهرونه في وجهه ويقضون به عليه، لا سيما وأنه كان يختار معاونيه وأحباءه وأصدقاءه دون تحرٍّ عما اذا كانوا أهلاً لذلك، بل كان يختار لساعته حيثما اتفق. فمثلاً اختار الكونت جوزيف مارتنزو الايطالي ليكون في حاشية الأمير ليؤدي عنه واجبه في ارضاء سموّ الأمير وتوفير ملاذه وتحقيق ملاهيه. لأن الويسيوس كان قد شغلته مهام الامارة عن أن يقوم بذلك الواجب.

ولم يكن الوزير ليخشى هذا الكونت وهو يعلم انه هو الذي رفعه الى تلك المكانة ، وانه هو الذي أحسن اليه . وأخذ الكونت يتقرب الى الأمير تقرباً أدناه من قلبه ومن نفسه ، وجعله يرى فيه ضرورة لحياته ليس له عنها غنى فزادت أهميته . ولكنه كان دائماً يظهر الخضوع للوزير ، عاملاً على ألاّ يثير شبهته أو شكوكه في مقدار اخلاصه له ، وتفانيه في تقدير جميله عنده . ولم يترك فرصة تمر دون أن يغتنمها في الفوز بتقدير الامير ولو كان ذلك على حساب كرامته ورجولته ودينه ، إذ كان في سبيل ارضاء سيده يشاركه آثامه وفجوره في سهولة ويسر ، كأنما قد نشأ وهو كونت في مباءة فسق . وكان موفقاً في اخفاء مغامرات سيده وطمس معالمها . وكان هو الرجل الوحيد المطلع على أسرار الأمير . وعندئذٍ بدأ يعمل لنفسه على حساب هذا الأمير الذي أصبح في يده ليصرفه كيف يشاء . كلَّ هذا والوزير لا يدري شيئاً عن مبلغ ما وصل اليه الكونت من مكانة وسلطان .

وقد يبدو عجيباً أن يصل الكونت الى ما وصل اليه دون أن يعلم الوزير ، ولكن هذا كان يستبعد أن يصبح من رفعه بيديه مزاحماً له شديد الخطر عليه . وكان الكونت حريصاً كل الحرص على إخفاء خطواته عنه حتى يظل في أمان من انقلابه عليه . وأخيراً علم الوزير الأمر ، وعلم أن مثل ما حدث هو الذي كان يهوي بمن سبقوه في كرسي الوزارة ، فقلق كل القلق ، لا سيما وأنه كان قد اكتفى بما بلغه من نجاح ، فلم يعمل على ابقاء آصرة الود قوية تشده الى ركاب الأمير ، بل انشغل بالعمل الجدي عن الامارة ، ولم يعبأ بالابقاء على ما قرَّبه في أول أمره الى الأمير .

ولم يكن الكونت ممن يقنعون بأن يكونوا تابعين أو مقودين . ولقد زادت مطامعه بازدياد نفوذه على الأمير ، فثبت من دعائم سلطانه وإثارة كبريائه ، لاسيما عندما كان الوزير يعمد الى امتهانه ليذكره بماضيه وبمن أسدى اليه هذه اليد ، حتى لم يعد يحتمل ما كان يلقاه من الوزير ، فصمم على أن يضرب ضربته ودبر الأمر سرًّا ، إذ كانت الشجاعة تنقصه لمجابهة الوزير بالعداء رغم أنه أصبح في مثل قوته ونفوذه .

* * *

ورأى الكونت الايطالي أن تكون ضربته قوية حاسمة ، وإلاّ راح هو ضحيتها . وساعدته الأقدار على الوقوف على سرّ مؤامرة كان الوزير يدبرها مع بعض الأمراء المجاورين ضد الأمير الذي أحسّ أن الوزير أصبح خائناً لا يؤمن جانبه ، وأصبح واجباً عقابه والضرب على يده . واتفق مع الكونت على إجادة تدبير الأمر وجمع القرائن ضد الوزير .

وكان الويسيوس جاهلاً كل الجهل بما كان يدبر له حتى اللحظة المؤلمة التي هوى فيها من حالق مجده الى الحضيض .

* * *

وفي اليوم المعلوم ، وكان يوم عرض عام للقوات العسكرية ، وكان الوزير يشغل مركزاً ممتازاً فيها ، ويعتمد على هذا المركز في تمكين مركزه السياسي ودعم نفوذه الاداري . وكان ذلك المظهر الفخم الذي تبدو فيه كبرياؤه حين يتملقه المتملقون من ذوي الأغراض والحاجات ، وحين يطل من سماء عظمته على أتباعه وأعوانه ممن رفعهم الى المراكز العاليـة وهم ملتفون حوله كالهالة حول القمر . ورآه الأمير على النحو الذي ذكرنا فعلم خطورة هذا الوزير عليه بعد إذ صار كوكباً تدور حوله الـكواكب . وبينما كان الوزير الأول ينعم بمظهره ومجده ، جاءه الـكونت وقد تغير حاله ، فلم يعد ذلك الوديع الخجول المؤدب مطأطيء الرأس حياء ، بل وقف أمام الوزير وقبعته على رأسه ، وخاطبه في جرأة ، وناداه باسمه المجرد من الالقاب ، وطلب منه أن يسلمه سيفه باسم الأمير ففعل ، وأخذ الـكونت السيف وحطمه وألقى حطامه بين قدميه ، وعندئذٍ تقـدم بعض الضباط الذين جاءوا مع الـكونت من الوزير ونزعوا عنه شاراته وأوسمته . والريشة التي كانت تزين قبعته . ولم يستغرق كل هذا أكثر من لحظة ولم يرتفع صوت معارض واحد ، بل خيم سكون رهيب ، فوقف الأمراء والنبلاء صامتين ، وقد اصفرّت وجوههم ، وزادت ضربات قلوبهم سرعة ، وكانت الدهشة تبدو واضحة على كل وجه . واحتمل الوزير ما حدث له في شجاعة وجلد .

واقتيد الويسيوس خلال صفوف النظارة حتى آخر الميدان حيث كانت تنتظره عربة مغطاة يحرسها فريق من الفرسان ، وانتشر النبأ في المدينة انتشار النار في الهشيم ، ففتحت النوافذ ، وأطلت الوجوه على العربة التي كانت تحمل رجلاً هوى من سمت مجده .

وسارت به العربة حتى دار الحاكمة مدى سبع ساعات . وكان وحيداً لا مؤنس له ولا مواسي حتى انحطت قواه المعنوية ، وخارت قواه البدنية ، وغاب عن وعيه . ولما أفاق وجد نفسه في غرفة سجن مظلمة لا ينيرها إلا بضعة أسلاك من نور القمر ، سمحت بمرورها القضبان المتشابكة في النافذة الوحيدة بالغرفة . ووجد الى جواره خبزاً جافـاً ، وأبريق ماء ، وبعض القش لينام عليه إذا ما دعاه داعي النعاس . وقبل الامر على علاته حتى ظهر اليوم التالي عند ما فتحت طاقة في سقف غرفته ، ورأى فيها يدين تدلان له صندوقاً به خبز كالذي وجده الى جواره في أمسه ، فأحسّ برغبة في نفسه للتساؤل عما جاء به الى هذا المكان

وأي مصير ينتظره . وسأل ولكنه لم يُجَب، بل انسحبت اليدان، وأغلقت الطاقة، فعاد الى وحدته المريرة القاتلة التي قضى فيها قَرابة خمسمائة يوم . واستطاع أن يعلم أن هذا السجن الذي يضمه بين جدرانه إنما هو من صنعه أمر بإنشائه منذ عهد قريب لينزل فيه أحد الضباط لا لذنب إلاّ أنه كان قد أساءَ إليه، وأن هذا الضابط قد أفرج عنه، بل وصار حاكم السجن .

ولحسن حظه لم يشأ حاكم السجن أن ينتقم منه ، وقد ألقى به القدر بين يديه ، مهيض الجناح مسلوب القوة، بل وساءه أن يناط به تعذيب الاسير، ولكنه لم يشأ أن يتنحى عن أداء ما كلف به نحوه، لأن النظام العسكري كان يقضي عليه بذلك . إلا أن قلبه كان رحيماً بالرجل فوكل أمره الى أحد مساعديه وهو واعظ السجن . ورأى هذا الواعظ الصالح أن من واجبه أن يخفف آلام السجين ويواسيه ، وقد قدر عليه أن يحرم كل رحمة . ولكن ادارة السجن لم توافقه على ما ذهب إليه من تفكير ، فقصد العاصمة وقابل الامير وسجد بين يديه . وناشده الرحمة والسماح له بأداء رسالته مع السجين على النحو الذي رآه إذ أنه أصبح مسئولاً عن نفسه وروحه، فمن واجبه أن يطهرهما حتى اذا غادر الرجل الدنيا غادرها وقد عرف سبيل الله . وبعد جهد عنيف سمح له الأمير بذلك .

* * *

وكان وجه الواعظ أول وجه إنسان رآه الويسيوس منذ ستة عشر شهراً وكان بليغاً في التعبير عن مبلغ فرحه وتقديره لجميل ذلك الواعظ صديقه الوحيد بين العالمين . والذي لم تستطع الايام أن تمن عليه بمثله ، وقد كانت الدنيا تحت قدميه . أما الواعظ فقد ارتاع لمرآه لأنه لم ير بشراً كما كان يظن بل رأى هيكلاً لا يكاد يتماسك زاحفاً اليه على قدميه ويديه، ولولا بريق عينيه لظنه الواعظ بقايا ميت متحركة . لقد ذهب بكل ما كان فيه اليأس والأسى . وطال شعره كما طالت أظافره فأصبح يحكي الاشخاص الخرافين التي يخيفون بها الاطفال .

وكان جو ذلك الجحر الذي كان يعيش فيه فاسداً يقتل الاصحاء . وأسرع الواعظ الى الحاكم والتمس منه يداً أخرى لذلك السجين تخفف آلامه حتى يكون لوعظه وارشاده أثر . ولما كان هذا يتعارض مع التعليمات التي يتلقاها الحاكم في شأن هذا الاسير، فقد رأى الواعظ ألاّ مندوحة له من الذهاب الى العاصمة ليلتمس من الأمير أن يخفف عن

السجين بعض آلامه ، بعد أن بلغ ما بلغه من انحطاط واضمحلال ، فسمح الامير بذلك ، وهكذا تحسنت ظروف الويسيوس وتحسنت حاله .

وفي الأعوام التالية لم يجد العذاب الذي كان يلقاه في أعوامه الاولى، لاسيما وقد طرحت الايام بالوزير الذي خلفه وأعقبه في ذلك المركز آخرون كانوا أكثر انسانية، واقل رغبة في الانتقام منه . ومرت عشرة اعوام على الرجل في سجنه دون ان يقدم الى المحاكمة وانتهى به الأمر الى أن أنعم عليه الأمير باطلاق سراحه ، على ان يغادر ارض الامارة، فغادرها الى أمارة أخرى ، وانخرط في سلك الجندية وبرزته مواهبه العسكرية فارتقى في سرعة حتى ارتفع نجمه وتألق سعده . أما الأمير فقد كانت نفسه قد تغيرت فأصبح إنساناً لكل الناس، له قلب، وله عاطفة، وودعته كبرياؤه وصلفه ، واتصف بالتواضع والتقى ، وابيض شعره، وأفزعته رهبة القبر ، وذكر صديق شبابه وتنكيله به ، فبعث إليه أن عد إلينا فنعيد عليك ما كنت فيه ، ونداوي جراحك ، ونعوض عليك ما نالك منا . وكانت بالويسيوس رغبة ملحة في العودة الى وطنه فعاد وأحسن الأمير استقباله ، ولكن هذا الاستقبال على روعته كان مؤلماً ، فان الأمير أخذ يمعن النظر فيه كأنما ينكره ، أو يفتش عن ظاهرة في وجهه تذكره به ، وأخذ يعدّ تجاعيد وجهه التى كان له الفضل الاول في وجودها .

كان الاستقبال حارّاً ولكنه كان ظاهريّاً لا اخلاص فيه فان الثقة كانت قد فقدت وإذا ما فقدت الثقة ، فليس الى استعادتها من سبيل . كان كلاهما يخجل من الآخر ويخافه . وشاء الامير أن يرضى ضميره، فأعاد الى الوزير مكانته ومجده ، ولكنه لم ينجح في اكتساب حبه ، وصدق ولائه ، وقد كانتا أهم صدمتين ربطت بينهما في الماضي. واحس هذا وتمكن منه هذا الاحساس، فظل حزيناً آسفاً الى ان مات .

* * *

أما الوزير فلم تكن التجارب التي مرت به قد غيرت من صفاته أو أخلاقه ، بل ظل كما كان في أبان قوته ، وعنفوان سطوته ، ووافته منيته ، دون أن يندم على قسوة أبداها او ظلم أتاه ، بل كان كلما ذكر ما حلّ به زاد غلظة وقسوة وظلماً كأنما كانت الذكرى وقوداً لعاطفته المتأججة ، وزاد لانتقامه ممن رماهم تحت رحمته القدر .

[مترجمة] عبد المنعم صادق

الشاعر الفرنسي سوللي برودوم

ترجمة ج. توفيق نهرا — الاسماعيلية

سكرة الموت

يا من ستساعدونني في نزْعيَ الأخير . لا تقولوا لي شيئاً
بل اجعلوني أُنصت الى قليل من الإِيقاع حتى أموت بسلام !
إن الموسيقى تسكّن ، تبهج . وتفكّ الأشياء من عقالها
إني أتوسل اليكم ! أن تحنوا على ألمي فلا تكلموه
فاني تعبٌ من الكلام . ومن سماع ما يجوز عليه الكذب
فاني أفضل عليه الألحان التي أحسها دون ما حاجة الى فهمها . .
أنشودة تسبح فيها الروح — وبدون مجهود تنقلني
من الهذيان . الى الحلم . ومنه الى الموت ...
يا من ستساعدونني في نزعي الأخير .. لا تقولوا لي شيئاً
فلإِنعاشي بقليل من النغم يهوّن عليّ
ستذهبون لاحضار مربيتي المسكينة التي ترعى قطيعاً
وستخبرونها إذ ذاك اني أتوق وأنا على حافة القبر
أن أسمعها تغني في خفوت أغنية قديمة
دارجة مكررة تلمس الشّغاف بدون كلفة ! .
انكم لا بدَّ واجدوها فأهل الأكواخ يعيشون طويلاً .
وستتركوننا معاً وحيدين
وسيلتحم قلبانا
وستغنّي لي بلكنة مرتعشة ويدها على جبيني
وربما كانت عندئذٍ هي الوحيدة التي تحبني ...
على ألحان هذه الأغنية سوف أتجه الى أيامي الأولى
حتى لا أشعر في ساعتي الأخيرة أن قلبي يذوب
حتى لا أفكّر
وحتى يموت الرجل
كما وُلد الطفل ...

باب الأخبار العلمية

من معجزات العلوم والفنون (١)

(١) تسخير الهواء ومنافعه

إذا ضغط الهواء ضغطاً يفوق كثافته الطبيعيـة ، فلا مندوحة له عن التمدد عند انطلاقه . وهذا بلا شك سرُّ القوة التي تتولد من الهواء المضغوط ، والهواء المضغوط يدير المثاقب التي هي من الضروريات لاستخراج الفحم الحجري والحديد . كما يجدِّد الهواء في آبار المناجم والانفاق ، ويحول دون تدفق الميـاه على العمال في خلال حفر المناجم ، ويساعـد أيضاً على ادارة دفات السفن التي تنقل الفلزات الى أفران صهرها ، ذات المراوح حيث يحتاج كل فرن منهـا الى زهاء ثلاثة أطنان من الهواء المضغوط ، وذلك لانتـاج طنّ واحد من الفولاذ ، ثم إنّ عوّاقات القطرات (فراملها) التي تنقل ذلك الفولاذ الى مصانع الذخائر الحربيـة ، يسيطر عليها الهواء المضغوط . وهذا الهواء عينه يقوم فى هاتيك المصـانع بتحريك الآلات المتذبذبة التي تساعد على سبك أجزاء الآلات « قطع التغيير » والمفاتيح الانكليزية والشواكيش. وفي البواخر ، والمـدرّعات ، والدبابات ، والطائرات التي تنتهي مراحلهـا في ميادين القتال، يؤدي الهواء المضغوط أعمالاً كثيرة ومنها تنشيط آلات الهبوط وادارة الونشات والأدوات الرافعة للذخائر الحربية في السفن ثم اطلاق الطوربيد . ولا تتاح وقاية الانفاق الـكبرى التي تجتازها القطرات مارّةً تحت الأنهار وفي بطون الجبـال ، إلاّ بمجرى ثابت من الهواء النقي الذي يُزَوَّد به عمالها حيث تتنـاول الشّـفاطات الـكبيرة ذات الأغطيـة ، الهواءَ المضغوط ، ثم تبثـه في الشقوق القاصية لتلك الـكهوف التي صنعها الناس، كما يستعمل فى نفخ اطارات السيارات وفي ترطيب التبغ في مصانع السجاير .

وربما كانت اشهر منافع الهواء المضغوط

---

(١) العلم ينبوع القوة ومبعثها . وهو وحده الذي أفاضها على من نعرف من الاقوياء في العالم والعلم الصحيح هو كشف أسرار الطبيعة وتسخيرها لمصلحة الانسان ، وما عداه فعلم لفظي لا يقدم الآن كثيراً ولا يؤخر — عبد العزيز فهمي باشا — من خطاب معاليه الذي ألقي فى دار حزب الاحرار الدستوريين لمناسبة حفلة عيد الجهاد في ١٣/ ١١/ ٤٦

استخدامه في آلات الثقب التي تستعملها فرق ترميم أراضي الشوارع أو في المباني التي تقام على الأسس الصخرية . وتستعمل المصانع الهواء المضغوط لأغراض مختلفة فتستخدم مجاري الهواء الساخن في تجفيف الأغذية ، وبذلك تستطيع اعداد ٢٥ مليون رطل منها ونقلها بالسفن الى مواضع استهلاكها مجردة من ٥٠ مليون رطل من المياه ، كانت تحويها قبل تجفيفها ، ويستعمل رشاش الهواء المضغوط ، في صقل الطائرات والسفن والعربات صقلاً متقناً بطبقات الدهان الذي تدهن به بغية تضليل الأعداء الذين يطمحون الى ضربها من الجو .

ويقوم الهواء المضغوط بادارة مجرى من الرمل صوب الأجزاء المعدنية ليزيل ما يعتورها من الخشونة وما يغشاها من الصدأ . وفي شركة الكهرباء العامة الأمريكية تربينة هوائية يزعم المطلعون عليها أنها لا مثيل لها في العالم ، اذ تقلد العمل الصحيح الذي تؤديه تربينة بخارية ، وذلك فيما عدا اعتمادها على الهواء المضغوط بدلاً من البخار المألوف ، لتوليد القوة الدافعة لها .

وتوجد تحت كثير من شوارع المدن الأمريكية وغيرها أنابيب هوائية تحرك المراسلات والرسائل البريدية والطرود من مكان إلى آخر (كما هي الحال عندنا في كثير من مكاتب التلغراف المصرية) وفي مدائن لندن وباريس وبرلين ونيويورك وبوسطن ، شبكات أنابيب كهذه ممتدة تحت شوارعها لنقل البريد . ويوجد تحت شوارع نيويورك وحدها ٢٥ ميلاً من هذا النوع . وكذلك تحت شوارع بوسطن ستة أميال منها ، وتبلغ الرسائل البريدية التي تنقلها كل يوم شبكة أنابيب الهواء المضغوط في نيويورك أكثر من سبعة ملايين رسالة . وفي بعض المصانع الكيميائية الأمريكية حيث تحدث التفاعلات الكيميائية في درجات حرارية منخفضة جداً ، يضغط الهواء المضغوط المجرد من الرطوبة كل التجريد ، بتحريك الصمامات وغيرها من المفاتيح التي تستهدف للتجمد من الرطوبة ، ويستعمل الهواء المضغوط لتحريك الخضراوات المخللة في محال تعبئتها وفي إبادة الحشرات بالتعفير وفي ادارة أجهزة حلب البقر والجاموس ، وفي إطفاء الحرائق في أمهات الغاز ، وفي تهوية مجاري القاذورات وفيما عدا ذلك من الأغراض

(٢) قثطرة تستخرج الدم من الأعضاء البدنية الداخلية

نشر حديثاً في أمريكا نبأ طبي طريف هو تمكن بعض أطباء الولايات المتحدة الامريكية من ادخال قثاطر دقيقة جداً في العروق البشرية الممتدة من المرفق الى القلب

مباشرةً . ومن ثمة الى الكبد والكليتين أيضاً بغية سبر أغوارها جميعاً . ومنفعة هذه الطريقة ، تسهيل تناول النماذج ، كالدم مثلاً من أي عضو أو منطقة بدنية معينة ، يتوخى الباحث استكشاف حالتها . فيتبين له عند فحصها كيميائيًّا ، مبلغ قيام العضو المقصود بوظيفته الحيوية واختبار أطواره الصحية مادام ذلك الدم المستخرج بتلك الوسيلة لا يمتزج بدم آخر مما يجري في غيره من الأعضاء البدنية .

ومما ينبغي اثباته في هذا الصدد أن هذا الابتداع العجيب ، ألماني الأصل ، إذ مارسه في جسمه ، منذ بضع سنين ، طبيب ألماني فحذا حذوه أخيراً ، فريق من أطباء مدينة أطلنطة ، عاصمة اقليم جورجية ، فوصفوا هذا الاختراع ولكنهم لم ينتحلوه لأنفسهم قط . ثم عكف الدكتور أندريه كورنند الطبيب المشهور في مستشفى بلفيو بمدينة نيويورك ، هو وطائفة من مرؤوسيه ، على احياء هذه الطريقة الباهرة وابلاغها مرتبة الكمال . ويعتقد أطباء أطلنطة أنها وسيلة يسيرة ، وإن خيل للناس أنها عسيرة وقد باشرها جميعهم أكثر من ٣٠٠٠ مرة في السنتين الماضيتين ، دون الاستهداف لأية عاقبة وخيمة .

والقنطرة أنبوب دقيق طويل مرن ، يدخله الطبيب في شقٍّ يشقه في وريد من أوردة المريض الممتدة في باطن مرفقه ، على أن يراقب ذلك العمل ويشرف عليه ، مشرّح حاذق ، حيث يلاحظه بفلوروسكوب مما تظهر عليه أشعة رنتجن ، حتى تصل القنطرة الى البطين الأيمن للمرء المزمع اختبار حالته الصحية . ومن القلب يتيسر مد القنطرة الى الأوردة المتصلة بالكبد والكليتين . بيد أنه لم يتيسر الى الآن بلوغ غيرها من الأعضاء .

(٣) التخاطب بأشعة ما دون الاحمر

إذا انتشر الضوء الأبيض انتشاراً تامًّا بمنشور زجاجي ، تمكّن المرءُ من رؤية طيف النور ، وهو خطّه المؤلف من ألوانه السبعة وهي البنفسجي والنيلي والأزرق والأخضر والأصفر والبرتقالي والأحمر . وهذه الألوان مجتمعة تمثل النور ، وإن اختلفت أطوال أمواجها . وهي تشاهد على تفاوت في قوس قزح . ولكن العين البشرية تعجز عن رؤية الأشعة الخفية التي في طرفي ذلك الطيف ، كما تعجز عن مشاهدتها في طرفي قوس قزح .

وتتولد الأشعة التي تحت الحمراء أو أشعة مادون الأحمر من مداخن البوارج ومحركات الطائرات والفلزات الساخنة مثل مكاوي

الثياب، ومن الغازات التي تنتشر من أنابيب عادم المحركات، على شكل سحب. وتستعمل هذه الأشعة لاعطاء الاشارات الخفية على أن يكون مبعثها مصباح من المصابيح الكشافة ومستقبلها مرقب من المراقب الخاصَّة بها. وعلى ذلك لا يستطيع الرقيب (الذي لا يُزوَّد بذلك المرقب) الشعور بتلك الأشعة وإن مرَّت بجانبه. وتتولد هذه الأشعة الخفية، ليلاً ونهاراً وتخترق البخار الخفيف والضوء والضباب والدخان بسهولة.

***

ومن الأسرار الحربية التي تكشفت للحلفاء المنتصرين، ولم تذع إلاَّ عقب انتهاء الحرب الأخيرة، أن الألمانيين واليابانيين كانوا يستخدمونها في محادثة جنودهم، عبر الأنهار والأودية والمواضع التي لا يزيد بعد بعضها عن بعض على عشرة أميال وذلك في المراحل الأخيرة من تلك الحرب الضروس، إذ اخترع علماء تينك الدولتين أجهزة تليفونية لاسلكية قوامها أشعة ما دون الأحمر، لمخاطبة بعضهم بعضاً، فكان الضابط يعمد الى ميكروفون فيتحدث فيه كيف شاء فتتحول كلماته توًّا، نبضات كهربية، تحرك مرآة، فتعكس هذه المرآة ما يقع عليها من هاتيك الأشعة الضوئية المتموجة في الأثير، فتلتقطها آلة مستقبلة حساسة بالضوء حيث توجد مرشحات تجعلها خفية وتصيرها كلمات كأصلها. وكانت الآلات المستعملة لذلك الغرض تشبه مصابيح كهربية كشافة مثبتة على ركائز ثلاثية القوائم تتفاوت أثقالها بين ٣٠ رطلاً و ٢١٠ أرطال انكليزية.

***

وقد تيسر لجنود الحلفاء في سنتي ١٩٤٤ و ١٩٤٥ الاستيلاء على أجهزة عدة من هذا الطراز فأرسلوها الى جامعة نورثوسترن حيث تولى فحصها وتحليلها الأستاذان و. س، هكسفورد، و أ. ه. ويندركوت الصغير، المدرسان في شعبة الطبيعيات. فأسفر بحثهما عن تقريرهما بأن الأجهزة الألمانية كانت نموذجاً لدقة الصناعة إذ تحتوي على وحدات بصرية من صنع مصنع كارل زايس المشهور في مدينة «يينا» Jena. وهذا على حين كانت مثيلاتها اليابانية أمتن منها صنعاً ولكن كان ينقصها كثير من التعديلات البسيطة. إذ كانت صماماتها المضخمة للصوت، تقليداً لأمثالها الأمريكية التي تمَّ صنعها منذ عشرة أعوام. ثم قال الأستاذ هكسفورد إن هذه الوسيلة من وسائل التخاطب اللاسلكي، يتسنى الانتفاع بها في أزمان السلم وذلك في المسافات القريبة التي تكون في اتجاه النظر وهذا بصفة كونها ملحقة بالراديو. واذا أتيح تحسينها، أمكن استعمالها في المرافىء البحرية والموانىء الجوية حيث يزخر الجو بموجات الراديو فتحول دون حدوث الالتباس هناك في الوسائل اللاسلكية.

(٤) جهاز رائد لاسلكي يصلح للارشاد في جميع الأجواء

قلت في مقتطف مارس سنة ١٩٤٦ وذلك في وصف الرادار أي الرائد اللاسلكي « إن استخدام الصمامات الكهربية جميعها يتمّ طبقاً لقاعدة واحدة أو أكثر ، من القواعد الآتية : —

« وهي توجيه الموجات القصيرة جداً لاظهار المواقع النائية للطائرات المعادية ، كما يُصوَّب اليها الضوء لكشفها . وسوف تستعمل هذه الموجات في زمن السلم لأداء أعمال مدهشة في البيوت وفي الطرق العامّة وفي البحار الهائجة وفي المصانع وذلك كتصريح أحد خبراء شركة وستنهوس الكهربية الصناعية »

* * *

وسرعان ما تحققت هذه الأمنية العلمية إذ وافتنا المجلات الامريكية بالنبأ الآتي : —

لقد أوتي جمهور المتحمسين للطيران بالطائرات الخفيفة ، حافزاً جديداً يقوي تفاؤلهم في مستقبل الطيران الشخصي . وأعني به جهازاً اخترع حديثاً يتيح لهم الطيران بطائراتهم الخاصة أثناء الليل وأطراف النهار رغم ما يطرأ على الجو من التقلبات . وهذا الجهاز هو رائد لاسلكي خفيف الوزن ، يحبو الطيارين الذين يطيرون طائراتهم الخاصة بعيون كهربية تخترق الأمطار وتتغلغل في الثلوج والظلام والضباب . وهو من مخترعات شعبة رياسة اللوازم العسكرية في الجيش الأمريكي . ويزن ١٢٥ رطلاً انكليزيًّا . ومن ميزاته أنه يفوق قليلاً جهاز الراديو المنزلي من جهة تعقيد تركيبه إذ أنه يدار بخمسة مفاتيح . ومن غريب أمره أنه قد بزّ الكبير البالغ ثقله ٥٠٠ رطل . وذلك بما أدخل عليه من التحسين العظيم ، الذي صيره أنفع من الصنف الثقيل السالف الذكر ذي المفاتيح الأربعة والثلاثين ، الذي كان مستعملاً في الجيش الأمريكي في زمن الحرب السابقة . ولا تتطلب ادارته إلاّ تحريك مفتاح كهربي حركة خفيفة ، فيشغل منظاراً لاسلكيًّا من الأشعة الكهربية . فيقوم هذا المنظار بالتفرس في أي بعدٍ من خمسة أبعاد . ويبلغ طول كشفها أربعة أميال حيث تظهر صور متألقة ضخمة للأنهار والمدن والأرياف وبه يتسنى أيضاً رؤية الأشباح على بُعد أقصاه ٩٠ ميلاً . أما المسافات المتوسطة التي تتفاوت أطوالها بين عشرة وعشرين وثلاثين ميلاً فانها تظهر للمشاهد مناظر مصغرة مختلفة المقاييس تزيد معلومات الطيار في أثناء اضطراب الأحوال الجوية . ويمكن استعمال الشعاعة التي تنير الأصقاع التي يهدف اليها الطيار كمقياس صحيح يدل على مبلغ حقيقة ارتفاع طائرته أيضاً . وهذا من شأنه تسهيل التقدير في الاقاليم الجبلية

تسهيلاً عظيماً حيث يضؤل نفع المقياس المألوف لذلك الغرض . وبما أن قوام ادارة هذا الرادر الصغير الكشاف ، هي الذبذبات المتناهية في الشدة التي تستخدمها المنائر الجوية القانونية ، وهي كفيلة بالاستدلال على الموانىء المقصورة واتجاهها وبعدها وذلك بعبارات ترسمها موجات صوتية تتجلى على ذلك المنظار ، فعلى هذا النمط يكون جهاز الرادر الذي وصفناه معواناً على الملاحة الجوية ، حيث يمد قائد الطائرة بعيون كهربية ثاقبة ومعلومات ثابتة خاصة بموقفه المضبوط من الجو الذي يكون سابحاً فيه .

ويقول مخترعوه إن هذا الجهاز الذي أطلقوا عليه اسم ا. ب. س. A. P. S. رقم ١٠ هو الحلقة الأولى من سلسلة الرادارات الخفيفة الوزن السهلة الاستعمال التي شرعوا في انتاجها وأولها جهاز يزن ٧٥ رطلاً سيكون أبعد مدى من سوابقه .

(٥) سائل سحري يعجل النمو البدني

تيسر للعلماء حديثاً تنقية هرمون لانماء الجسم البشري ، يتاح به إنتاج جيل من الجبابرة . ومن المحتمل أنه سيلقي ضياء على مشكلة داء السرطان . وقد أسفرت التجارب التي جربت في جامعة كليفورنيا ، عن دليل قاطع ، هو إن مادة واحدة هي مصدر النمو البشري . ونعني بها هرمون النمو الذي تولده الغدة النخمية . وهي غدة صغيرة جداً في قاعدة المخ . وبلغ من عظم مفعولها ، أنها أياً كانت ضؤولة إفرازها ، الذي لا يُرى إلاَّ بالمجهر ، فانه يعجل نمو الجسم ، كما ثبت ذلك في الحيوانات التي استعملت للتجربة . ولا عجب فان $\frac{١}{٣٠٠٠٠}$ من المليجرام منه يحدث نمواً محسوساً في الجرذان، على حين أن ثلاثة أضعاف هذا المقدار ، تزيد جراماً واحداً يومياً إلى ثقل الجرذ . وكان الدكتور هربرت م . إيفانز الطبيب بجامعة كليفورنيا ، أول من استفرد هذه المادة الكيميائية الجديدة ثم استعملت بخاصة لاختبار الحيوانات ، إذ أعدت للتجربة جرذان استؤصلت غددها النخمية فتوقف نموها توقفاً تاماً . ولما بلغت (سن الشيخوخة) حقنت بذلك الهرمون فاستأنفت نموها بأقصى قوة الشباب . واطرد نموها حتى بلغت جرماً ضخماً جداً .

وقد دلت التجارب التي جربت في العظام الكسيرة ، أن ذلك الهرمون يساعد الجسم على الاحتفاظ بالنيتروجين ، بغية تركيب البروتينات تركيباً كيميائياً . والبروتينات هي اللبنات الأساسية للنسيج الحي كله . أجل إن تأثير هذا الاكتشاف في علاج الكسور ، طفيف ، ولكنه خطير الشأن لأنه يلقي ضوءاً عظيماً على الوسائل الأساسية لنمو الخلايا البدنية . ومن ثمة على معضلة داء السرطان .

(٦) سر اكتشاف قاتل سوس القمح

قلت في مقال نشرته في إحدى المجلات في شهر مارس سنة ١٩٤١ بعنوان اللعنة الفرعونية الجهنمية على لصوص المقابر المصرية ما يأتي : —

قال الدكتور G. O. Kinnaman كينامان العالم الأميركي الأثري المشهور وهو أحد الأحياء القلائل الذين كانوا أول من ولج مدفن توت عنخ آمون ، وذلك في خطبة ألقاها في مدينة هوستون بولاية تكساس إن المذهب القائل ان أولئك الرجال ماتوا من لعنة الفراعنة ، لهو من الخرافات المحضة . ومع ذلك فاللعنة وقعت ولكنها ليست روحية كما يتوهمون . واعتقادي أن قبر توت عنخ آمون قد عولج عند اتمام تشييده ، بغبار مسحوق سام . وان كل ركن من أركانه ، وكل شيء من الأشياء التي وجدت فيه ، قد ذُرَّ عليه ذلك المسحوق الزعاف ، فلما دخل أعضاء الجمعية التي اكتشفت القبر ، ولجه الهواء النقي أيضاً في الوقت عينه فأثار نقعه السام ، فتنشقه فاتحوه .

ولما انتابهم المرض فيما بعد ظهرت عليهم أعراض تشبهها في الالتهاب الرئوي فعولجوا بعلاجه فلم ينجع فيهم الدواء فاستفحل الداء حتى قضى عليهم . فالاعتقاد بأن مقابر ملوك مصر القدماء ، كانت تحميها من النهب والسلب وسائل خفية وأن نصيب كل من كان يعتدي عليها الاستهداف للكوارث أو الموت العاجل لا محالة — هذا الاعتقاد هو من المذاهب العتيقة الخاطئة الواسعة الانتشار . ا ه .

* * *

هذا ما آثرت الاستشهاد به على اعتقادي بأن قاتل سوس القمح هو ذلك المسحوق عينه كما سيثبت فيما يلي : —

روت جريدة الاجبشن مايل في ١٥ مايو ١٩٤٣ ما يأتي : —

« سر مدفن أحد الفراعنة يساعد على إطعام الجيش » .

أذاعت شركة الصناعات الكيميائية الامبراطورية في أحدث تقرير أصدرته أن الأسرار التي كشفت في أحد مقابر الفراعنة ، تكفل صون اهراء الحنطة من السوس فتضمن تغذية الجيوش البريطانية المرابطة في أرجاء الشرق الأوسط .

* * *

وقد تبين العلماء عند فتح أحد المقابر الفرعونية منذ أعوام ، أن القمح الذي وجد مدخراً فيه كان صالحاً للتغذية الصحية . وحينئذ عمدوا الى تحليل تربة ذلك القبر تحليلاً كيميائياً فتحققوا أنها تحتوي على

مسحوق ناعم جداً يقتل سوس القمح .

وأهم عناصر ذلك المسحوق هما فسفات الجير وكبريت العمود المصريان والطن منهما يساوي الآن عشرة جنيهات انكليزية . وبهذا الطن تتاح وقاية مائة طن من البُر .

* * *

ويُعزى جل اكتشاف سر هذا التركيب الكيميائي الجديد ، القديم، لعالم مصري من علماء الحشرات في القاهرة هو الأستاذ الدكتور رزق عطية » .

وقالت جريدة المصري في اليوم نفسه ما يلي : —

وجد العلماء بعد تحليل التراب الذي في مقابر الفراعنة أنه يحفظ القمح من التعفن (كذا) و (الأصوب أن نقول السوس) وبذلك أمكن حفظ مقادير هائلة (كذا) والصواب عظيمة منه في مستودعات لتموين الجيوش البريطانية في الشرق الأوسط. ومنذ سنوات ذهب العلماء الى هذه المقابر للبحث عن السبب في أن القمح الذي دفنه ملوك قدماء المصريين بقي سالماً ولم يتلف الى اليوم . وقد أسفرت أبحاثهم عن اكتشاف مسحوق لقتل السوس . وحضّره الدكتور رزق عطية الأستاذ في علم الحشرات المصرية وقد بدأ تجاربه بمواد أخذها من الأرض المصرية

* * *

وقد أثنت الصحف البريطانية اليوم على الدكتور رزق عطية أجمل الثناء لأنه كان واسطة لإطعام الجيوش البريطانية » وأيدت سائر الصحف المصرية هذا النبأ في حينه

* * *

وعقدت جريدة « الديلي ميل » فصلاً لفتت فيه الأنظار الى البحوث التي يقوم بها الدكتور رزق عطية من كبار المتخصصين في علم الحشرات بوزارة الزراعة في القاهرة قائلة انه هو الذي اخترع (قاتل السوس) لحماية القمح من آفاته المهلكة . ثم أشارت الى ما ذكره أحد رجال (شركة الصناعات الكيميائية الامبراطورية ، من أن (قاتل السوس) مصنوع من مواد موطنها مصر وأن التجارب دلت على أنه ذو أثر فعّال في الأجواء الجافة .

* * *

وتلقت وكالة الأنباء العربية من لندن ، إنه ينتظر أن يصل إلى مصر قريباً الدكتور كوين الخبير العالمي بالحشرات الزراعية للبحث مع وزارة الزراعة والسلطات المتحالفة بشأن خزن القمح في الشرق الأوسط .

ومما جاء في هذا النبأ ، أن اكتشاف الدكتور رزق عطية ، الذي تقدم ذكره يرجع إلى تجارب أجراها في قبور الفراعنة وعثر فيها على قمح يرجع إلى قرون متعددة . فتبين له أن التراب الذي يحيط بالقمح يحتوي على خواص معينة لحمايته .

(٧) الجهاز المسجل للحديث التليفوني

قلت في مقال نشرته في مقتطف مارس سنة ١٩٤٦ تحت عنوان « من معجزات العلوم والفنون » ومن المخترعات التي أسفرت عنها الحرب الماضية ، استعمال الصمامات الكهربية ، لتدوين المحادثات التليفونية في أثناء غياب صاحب التليفون ، عن مسكنه ، ريثما يعود إليه في أية ساعة ، فيتلوها ذلك الجهاز عليه بصوت جهوري » .

وقد جاءتنا المجلات العلمية الأمريكية حديثاً ، بوصف الجهاز المشار إليه ، فنزفه إلى قرائنا نقلاً عنها فيما يلي : —

وافقت اللجنة الحكومية الأمريكية المتحدة التي استشارتها وزارة المواصلات هناك بشأن ضم الجهاز المسجل للأحاديث التليفونية إلى التليفونات مشترطة لذلك شرطاً واحداً إذ نصحت للمتكلم ، بملازمة الحرص في أقواله وذلك إنه عند شروع المخاطب « بكسر الطاء » في حديثه ، تصدر من الجهاز إشارة أوتوماتيكية ، تحذر المستمع بأن هناك أسطوانة تسجل عليها كلماته التي يفوه بها وقتئذٍ. وقدرت الشركات الأمريكية الثلاث التي تصنع هاتيك الأجهزة عدد ما تم صنعه منها حتى أواخر سنة ١٩٤٦ بنحو ١٩٠٠٠ جهاز بما فيها المستعملة لدى القوات الحربية .

ومما ينبغي ذكره أن شركة أمريكا للتلغراف والتليفون لم تدخر وسعاً في مقاومة هذا الاختراع عند بدء ظهوره ، محتجة بأنه سيعبث بالسرية الواجبة في المحادثات التليفونية . ومع ذلك فإن هذه الشركة عادت فأعلنت أنه ما دامت سرية الحديث ، ستكون مصونة كما يجب ، فلا اعتراض لها على القيام بخدمة ممتازة لمشتركيها الذين يبغون سجلا دائماً لتدوين ما يفضون به لمخاطبيهم. وكذلك لقيد ما يقال لهم تليفونيًّا في حينه . وهي تكفل إتمام هذا المشروع بثلاث وسائل . وهي أولاً — جهاز أوتوماتيكي ينبه على الصوت إذ يولد إشارة واضحة تتكرر في فترات وجيزة في أثناء المحادثة في حالة قيام المسجل بعمله .

ثانياً — وجوب وضع علامة نجمة أو أية سمة مميزة ، تجاه اسم المشترك التليفوني الذي يستعمل الجهاز المسجل للكلام

ثالثاً — قيام الشركات التليفونية وصناع الأجهزة المتقدم وصفها ، بالتضافر بعضها مع بعض ، في سبيل نشر هذه الأجهزة وتعليم الجمهور معنى الأشارات التحذيرية .

ثم أعلنت أيضاً اللجنة التي نحن بصددها ، أنها انما تؤيد استعمال الأجهزة السالفة الذكر التي توصل بخطوط التليفون ، لا الأجهزة التى تلتقط الأحاديث عن طريق ميكروفون يوضع بقرب سماعة التليفون .

عوض جندى

مكتبة المقتطف

رباعيات عمر الخيام

بقلم توفيق مفرج — ١٢٨ صفحة بالالوان

منذ أكثر من خمس عشرة سنة أخرج الأستاذ توفيق مفرّج كتابه « آلام وأحلام » الذي ضم مجموعة من خواطر المؤلف أرسلها شعراً منثوراً في نغم متساوق وعاطفة جياشة ، وكان لي نصيب الاشادة بذلك الكتاب في هذه المجلة وقتذاك ، ثم مضت الأعوام والأستاذ توفيق مفرّج في عزلة عن قرّائه حتى طلع عليهم أخيراً بكتاب جديد عن رباعيات عمر الخيّام . طبعه على ورق جميل بالألوان وزينه بواحد وثلاثين رسماً عن حياة عمر الخيام.

وليس الكتاب ترجمة لرباعيات الخيّام ، وإنما اتبع المؤلف فيه غير ما اتبع كثير ممن نقلوا إلى العربية هذه الرباعيات سواء عن الانجليزية أو الفارسية ... فقد درس المؤلف فلسفة الخيام دراسة تعمق واستوعب في نفسه هذه الفلسفة والاتجاهات الخيّامية ثم خرج من الجو الخيّامي بروح ونغم جميل .

فهو قد وضع رباعيات الخيّام من خلال فلسفة الخيّام ، شرب كأسه فاستطاع أن يؤلف من النشوة التي أخذ بها أناشيد جديدة فيها خمر معتقة قديمة ، لها جمال الجديد في تصويره وجلال القديم في تعبيره . ولقد قال في المقدمة النفيسة التي صدّر بها تلك الرباعيات :

« لقد درست الفارسية خصيصاً لأستعين بالأصل الفارسيّ ، ثم استعنت بالوضع الانكليزي ، الذي وجدته بعيداً كل البعد عن الأصل الفارسي . . . إني لم أترجم عمر الخيّام ترجمة حرفية ، ولم أتحرَّ الكلمات والجمل ، ولم أحرص على مراعاة الأصل ، بل أخذت المعنى ووضعته وضعاً جديداً ، حتى إذا شئت أن تعود به للأصل الفارسيّ فقد لا تجد تشابهاً أو تقارباً أو تعاشقاً بين الأصل والفرع »

« لقد نزعت عنها الثوب الفارسيّ ، وألبستها بالعربية روح الخيّام الشاعر الفيلسوف . لقد سكبت روح عمر الخيّام في روحي ، ومزجت نفسه في نفسي ، وأطلت روحي إلى الحياة من ذات النافذة التي أطلّت روحه منها » .

هذه هي الطريقة التي انتهجها الأستاذ توفيق مفرّج فأحسن النهج ووفّق في الوصول إلى أفق الخيّام ، وشرب من كأسه فانتشى ، ولم تأخذه النشوة الساحرة دون أن يستطيع التعبير الصادق عن تلك الروح التي فتنت الكثيرين وخلدت في آداب الأمم بفلسفة وشعر خالدين على مرّ الزمان . وانّنا لنعتقد صدور هذا الكتاب فتح جديد في اللغة العربية .

ويكفي تقريظاً للكتاب الرسالة التي أرسلها رفعة النحاس باشا إلى مؤلفه بعد اطلاعه عليه وهي منشورة على غلافه الخارجي .

حسن كامل الصيرفي

صور من التاريخ العربي

للاستاذ نقولا زياده : ٣٠٤ صفحات « دار المعارف في القاهرة »

تحضرني وأنا ماضٍ في الحديث عن كتاب (صور من التاريخ العربي) كلمة ذكرها فيلسوف الفريكة المرحوم أمين الريحاني يوم جاس ديار نجد باحثاً منقباً ، وعندما حملته الركائب إلى (القاع) في قصيم نجد قال رفيقه (بداح) .

« والله يا هذال ان بلاد نجد عجيبة » فأجابه (هذال) بقوله : وأعجب منها يا بداح نحن الذين نعرف ما فيها ! »

والواقع أننا كأمة ناشئة تتشوف الى الاستقلال ، وتصبو الى تحطيم الأغلال ، وتتطلع إلى فجر يوم جديد مقصرون جدّاً في معرفة أحوال بلادنا والوقوف على الأحداث التاريخية التي مرت بها ، وعلى النقيض منا الغربيون فهم قوم يختلفون عنا بعناياتهم التامّة ببيوتهم ومدارسهم ، إذ يوجهون النشء إلى مدارسة البيئة وما يلابسها ويصدر عنها ، ولهذا الغرض عينه تعنى المدرسة والأسرة الغربيتان بتنظيم الرحلات العلمية فيطوف الطلاب الناشئون في البلاد عرضاً وطولاً ، يتنسمون أخبارها ويستروحون آثارها ، ويتدارسون معالمها وعادات سكانها في مختلف نظم الحياة ، بينا نحن معاشر العرب ندعو إلى امبراطورية شاملة ونهتف باسم مصر والسودان ، ولحج وعمان ، ونسعى الى تحرير طرابلس ومراكش من ربقة الاجنبي دون أن يعرف أكثرنا أين تقع طرابلس ! وفي أي الأقاليم تقع تونس !

ولكن الأستاذ نقولا زياده هذا الشاب الفلسطيني الواعي راد بقاع سوريا الطبيعية ساحلاً وداخلاً ، وعقد الفصول الضافية عما شاهده في رحلاته الممتعة من آثار بعلبك وتدمر وجرش والبتراء وأماكن تاريخية لها قيمتها الاستراتيجية في تاريخ العرب وفتوحهم كالسهول التي جرت فيها معارك (مؤته) و (اليرموك) و (حطين) و (عين جالوت) وضمها في كتاب أخرجه للناس تحت عنوان « صور من التاريخ العربي » قال في مقدمته :

« أيها القارىء الكريم ! في التاريخ العربي قاعات قلّ داخلوها ، وسبل قلّ طارقوها ، وزوايا قلّ والجوها ، وفي هذه القاعات والسبل والزوايا خير كثير ، لو أنصفها الناس ! وهذه الصور التي أقدّمها لك هي ثمرة جهد بذل في سبيل التعرّف إلى تلك النواحي المهجورة من تاريخنا !

ولقد لقيت في جمعها متعة ولذة ، رأيت ان لا أحرمك منهما ، وآمل إن أوفق إلى إثارة رغبتك في الكشف عن صور مماثلة لها وما أكثرها ... ! » .

وفصول الكتاب رحلة شذية الفوح ، معطرة الجنبات ، نظم عقدها الأستاذ زياده وراح يتنقل بالقارىء من فن إلى فن، ومن أيكة إلى أخرى ، فهو يقف بك في مدينة انطاكية ، ويسير بك إلى كنائسها الجميلة المزخرفة بالجصّ المذهب والزجاج الملوّن والبلاط المجزّع ثم يصطحبك إلى أسواقها المستطيلة ومبانيها الجميلة ويتابع سيره إلى حلب الشهباء عاصمة بني حمدان فيصفها وصفاً مغرياً مستحباً ! . ويسير إلى دمشق المدينة الخالدة خفيفاً طائراً ، ويحط عصا تسياره في ندوة طبيبها الشهير اليبرودي فيجد الحديث قد دار حول الخصال المفروض توفرها في الشخص الذي يود ان يكون طبيباً ، وبعد أخذ ورد في أصول الموضوع وفروعه يبارح الرحالة الفلسطيني ندوة اليبرودي الى مؤتمر مدرسين عقد في أحد أبهاء دمشق ، وفيه دار حديث هادىء ونقاش مستمر حول الغايات التي يجب أن يضعها المعلم والمتعلم نصب أعينهما ، وما هي الا لمحة عابرة حتى نرى المؤلف قد هبط القاهرة وحضر جلسة عقدت في مسجد السلطان حسن اقتصر فيها البحث حول (كاتب الديوان) والشرائط التي يتحتم توفرها فيه .

وكانت إحدى الصور النفيسة التي طالعنا المؤلف بها عزلة الامام الغزالي في بيت المقدس وحلقات الوعظ التي كان يعقدها في المسجد الأقصى المبارك ، وكان من همة الأستاذ زياده أن شد الرحال الى أبرز الأماكن الأثرية في بلاد العرب ، وراح يحدثنا بلباقة المؤرخ الخبير وأسلوب المحقق المعتدل، عن صلة كل موضع زاره بالفتح الاسلامي الاول ورجاله الغر الميامين الذين كونوا من شتات البدو دولة، وبعثوا من جوف الصحراء حضارة ، ونفخوا في قلوب العرب من روح الله ، فطمحوا الى ملك كسرى وهم جياع، وسموا الى عرش قيصر وهم عراة، وصمدوا لحكم العالم وهم سذج !

وفي آخر فصول الكتاب يطالعك المؤلف بصفحات مطوية من تاريخ العرب تناول فيها عفو معاوية ودهاءه في استقبال نسوة من العرب ناصبنه العداء في سبيل نصرة الامام علي، وحلم المأمون الى آخر هذه اللوحات الزاهية من صور السلف الصالح !

هذه إلمامة عابرة عن كتاب يزيد في شموخ العربي واعتزازه بأمته ومفاخرها عندما يقلّب صوره، ويتلو فصوله، ويستعرض لوحاته، وتوصلاً للهدف القومي الذي يرمي إليه الأستاذ زياده في مؤلفه النفيس أقول لإخواني من الشباب العربي المثقف: تعالوا سيحوا مع المؤلف تبدُ لكم حقائق نقلها الغربي عنا ملتوية مشوّهة! وسيروا مع هذا الشاب العربي المؤمن إلى بلاد انبثق منها نور النبوءات والمكرمات تروا أنكم أحفاد شعب طيب سار في ركب الحضارة قدماً فكان المجلي الموهوب.

(بيت المقدس — فلسطين) **البدوى الملثم**

ثلاثة دواوين

١ — ليالي الشاطىء: للاستاذ مصطفى عبد الرحمن — القاهرة
٢ — العرائس: للاستاذ ابراهيم العريض — البحرين
٣ — وابل وطن: للاستاذ يعقوب ابراهيم عبوديا — بغداد

قبل أن نتكلم عن هذه الدواوين الثلاثة نلم في سطور قليلة بمدارس الشعر ومذاهبه منذ فجر نهضته الحديثة مستخلصين من تلاحم هذه المدارس واختلاطها بعضها ببعض خيوطاً تحدد لنا المعالم بوجه التقريب. وقد نكتفي بخيطٍ واحد عن خيوط كثيرة.

كان سامي باشا البارودي هو الفجر الرائع لأحياء الشعر العربي القديم بروعته وجزالته، ثم تلاه شوقي وحافظ والزهاوي ومطران . . . .

وقد كان شوقي أعلا قمة تمخضت عنها المدرسة القديمة وكأنما وضعت تلك المدرسة كل عبقريتها في شوقي لتتحدى به الأجيال، بل لقد تحدى شوقي المدرسة الحديثة بتمثيلياته الشعرية وكما اختتمت العصور الوسطى أروع ختام بشكسبير ومؤلّف (دون كيشوت) كذلك انتهت المدرسة القديمة بموت شوقي انتهاءً رائعاً كما تغرب الشمس وسط أبدع مشاهد الغروب.

أما المدرسة الحديثة فنجد بذورها عند مطران وعبد الرحمن شكري متأثرة أحياناً برواد الشعر في الشام والمهجر. فعلى شعر مطران نشأ ناجي وعلي طه وأبو شادي وللأخير فضل التوجيه أكثر من فضل الانتاج على المدرسة الحديثة، إذ أنشأ مجلة الشعر المعروفة باسم «أبوللو» التي كانت معرض نتاج هذه المدرسة من الشعراء المحدثين أمثال الهمشري وصالح جودت والصيرفي والشابي (أبو القاسم الشابي).

اما شكري فقد أنشأ مدرسة قوامها العقاد والمازني — اللذان وضعا بنقدهما الأساس الصحيح لتذوق الشعر الحديث، وكما كان مطران عماد مدرسة بأكملها تقريباً فقد جاء العقاد

عماد مدرسة على حدة تمتاز بتعمق الفكرة وتتبعها واستقصائها دون العناية الواجبة بالحافز الشعري (Emotion) ما دام المعنى جديراً بالقول موسوماً بالابتكار وتعتبر ملحمة العقاد (ترجمة شيطان) أبدع مبتكرات تلك المدرسة وقد انتظمت هذه المدرسة تقريباً جميع شعراء دار العلوم .

والدواوين الثلاثة التي بين أيدينا هي صدى من قريب أو بعيد لهذه المدارس المتفاعلة في مصر والبلاد العربية، وهي برهان على أن الأقطار العربية تعيش في جوّ ثقافي واحد رغم تقسيمها السياسي .

أما أولها وهو ديوان (ليالي الشاطىء) فهو امتداد لمدرسة الهمشري وناجي ولكنه مطبوع بطابع خاص هو الطابع الغنائى . وإذا قلنا أن كتاب الأغاني يحوي طائفة من الأشعار تتميز بطابع خاص عن بقية الشعر العربى فان ديوان ليالي الشاطىء لأقرب إلى الرقة الغنائية من أي ديوان آخر، إسمعه يقول :

آه لو تسمعني أشكو الجوى   يا حبيبي آه لو تسمعني
وترى القلب ونيران الهوى   ولظاها بات يرعى بدني

ثم يقول : —

أيها الشاطىء قد طال بنا   أمدُ البعد ولما نلتقي
أين أيامٌ قضيناها هنا   مشرقاتٍ من سناك المشرق !
أتعودين مع الصفو لنا   راقصاتٍ يا ليالي الزورقِ !؟

* * *

أما ديوان العرائس للأستاذ ابراهيم العريض فيذكرنا بشاعرين من نبغاء الشباب هما أبو القاسم الشابي والتيجاني يوسف بشير ، وشعر هذا الديوان مع ما تركه هذان الشاعران ثروة ومعين لا ينضب لمدرسة الشعر الحديث . وفي ديوان العرائس نجد الصور الجميلة الفاتنة والمعاني المشرقة النابضة تختال أحياناً وتتراقص أحياناً في أنغام غاية فى العذوبة ، وجمال الإيقاع . ولا يمكن أن تسمع أو تقرأ قصيدة من هذا الديوان دون أن تحس بأحساس يرفعك عن مستوى الأرض الى دنيا الجمال السامي، بينما تستروح روحك شجناً دفيناً في الأعماق. اسمعه يناجي إبنته :

طِبتِ يا ليلاي نفساً فافهمي   ليس كالشاعر في الناس مُعنَّى
هو من أحلامه في جنَّةٍ   فإذا حدَّث عنها قيل جُنَّا

كلنا طائره في قفصٍ   إنما يُطلقـه المجـدود منَّـا
لو درى الضاحك في سكرته   أنه يشرب دمعاً لتـأنَّى ! !

ومن غزله الرقيق :

أريني ناظريكِ فما   صحا قـلبي بإدمانه
لاصبرُ فيهـما غو   ر المحيط وراء شطآنه
وخلِّي خدك الورديَّ   يفتنــني بألوانه
لأنثر فـوقه قـُبلاً   وأطفىء بعض نيرانه ! ! .

* * *

أما ديوان «وابل وطل» فرغم أنه وصلني من بغداد وان شاعره يعيش في العراق فانك لو جهلت شاعره ومنبته لنسبته الى شاعر في مصر أو الشام ، فرغم أن بغداد كان يجلجل فيها الى عهد قريب شعر الزهاوي والرصافي عليهما رحمة الله . ورغم أن المذاهب الشعرية هناك لا تتصارع بالعنف التي تتصارع به في مصر والشام . الاَّ أن ديوان «وابل وطل» قدم لنا برهاناً قاطعاً على أن التطور الشعري ينتظم الاقطار العربية كلها ، وان البراعم المنثورة في هذا الديوان هنا وهناك ، والحنان والانفعال المشبوبين بين الأبيات والمقاطع ، تجعلنا نأمل خيراً في هذا الشاعر ، ولسوف يطلع علينا بديوانه التالي وقد تفتحت أزهاره ووروده عن أريج يعطر أرجاء الأقطار العربية فضلاً عن العراق .

ومن صوره الشعرية :

ملأت يدي اليمنى بلؤلؤ أدمعي   وقلبيَ في يُسرَى يديَّ ذبيحُ

ومن شعره المفعم بالحنان :

يا زهرات البنفسج العطِرِ   بالله لا تسأمنَّ من سَمري
قد ضقت ذرعاً بليلتي وبذي الـ   ـكواكب الزاهرات والقمر
قد ثقُلتْ وحدتي عليَّ وقد   جدَّدتْ الذكريات لي حَزَني
ما أروع الذكريات حافلةً   تشغلني في اصطخابها الحسَن
تدبُّ فيها الحياة في صور   تفرحني تارةً وتُحزنني ...

واننا نلاحظ على هذه الدواوين ندرة أشعار المديح والمناسبات وهذا مما يفعم نفوسنا بالأمل والغبطة إذ نرى ما نادينا به منذ سنوات في ديواننا [أفاريد] قد استجابت له أنفس الكثيرين من الشعراء في الأقطار العربية ، واننا لسعداء اذ نجد اخواناً يشاركوننا نفس الآمال والمشاعر في كل قطر عربي .

محمد فهمي

فهرس الجزء الثالث

من المجلد العاشر بعد المئة

١٦٣ التعليم والتربية : اسماعيل مظهر
١٦٧ النظائر وكيمياء النواة : جريس الشرايحه
١٧١ الرادار كيف يشتغل : نقولا الحداد
١٧٦ النار (قصيدة) شاعر البراري
١٧٧ الأدب الرخيص
١٧٩ احمل قلمك واتبعني ! : عيسى ابراهيم الناعوري
١٩١ الحضارة واختلاف الطبائع : ع . ش .
١٩٥ العلامة اللغوي الآب انستاس ماري الكرملي : محمد فاتح توفيق
٢٠١ كيف تحفظ صحتك — عيناك : فهمي عطا الله
٢٠٢ أنغام باكية (قصيدة) : عفيفي محمود عفيفي
٢٠٣ الحرب والسلم : جريس القسوس
٢١٩ ظمآن (قصيدة) : محمد فهمي
٢٢١ القدر : تأليف ج شلر : ترجمة عبد المنعم صادق
٢٢٦ سكرة الموت (قصيدة) للشاعر الفرنسي سوللي پرودوم ترجمة ج. توفيق مرا
٢٢٧ باب الاخبار العلمية ٭ من معجزات العلوم والفنون (١) تسخير الهواء ومنافعه (٢) قنطرة تستخرج الدم . (٣) التخاطب بأشعة مادون الاحمر (٤) جهاز رائد لاسلكي يصلح للارشاد في جميع الاجواء (٥) سائل سحري يعجل النمو البدني (٦) سر اكتشاف قاتل سوس القمح (٧) الجهاز المسجل للحديث التليفوني : عوض جندي
٢٣٦ مكتبة المقتطف ٭ رباعيات عمر الخيام : حسن كامل الصيرفي . صور من التاريخ العربي : البدوي الملثم . ثلاثة دواوين (١) ليالي الشاطىء (٢) العرائس (٣) وابل وطل : محمد فهمي

ملحق

١ — ٤٨ المسرحية عند شوقي : تأليف محمود حامد شوكت